الكنيسة المصريّة في رسائل العيد
للقدّيس أثناسيوس الرسوليّ بابا الإسكندريّة

الخوري بولس الفغالي*

دأب أساقفة الإسكندريّة، منذ مجمع نيقية[1] الذي كلّفهم تكليفًا رسميًّا، على تحديد التاريخ الذي فيه تعيّد الكنيسة عيد الفصح، كلّ سنة. وما كانوا يقتصرون على بعض عبارات صغيرة، بل كانوا يرسلون كلّ سنة رسائل «رعائيّة» تتوجّه إلى الأساقفة المؤمنين في الأبرشيّات المرتبطة بكرسيّ الإسكندريّة، كما يرسلون إلى البطريركيّات الكبرى في رومية والقسطنطينيّة وأنطاكية وأورشليم. هذا ما يُسمّى رسائل العيد[2]. أوّل أثر نجده وجّهه ديمتريوس (١٨٨-٢٣٠) إلى أورشليم وأنطاكية ورومة[3]. وتبعه ديونيسيوس وبطرس وصولًا إلى كيرلّس الذي احتفظت لنا

(*) باحث في الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة الشرقيّة.

(١) رج ما قاله أثناسيوس في رسالة إلى أساقفة أفريقيا (الآباء اليونان ٢٦: ١٠٣٢). عُقد مجمع نيقية من أجل حلّ الأزمة الأريوسيّة، ومن أجل تحديد الفصح عيدًا يحتفلون به في يوم واحد وفي الأرض كلّها.

(٢) *Lettres festales* رج أوسابيوس، التاريخ الكنسيّ ٧: ٢٠ الذي يذكر ديونيسيوس، أسقف الإسكندريّة (٢٤٧-٢٦٥)، وإيرونيمُس، الرجال العظام المقطع ٨٧. وقال يوحنّا كاسيانُس عن عادة أساقفة الإسكندريّة أن يرسلوا رسالة رعائيّة في هذا الشأن بعد عيد الفصح، يحدّدون فيها زمن الصوم المقدّس وعيد الفصح، لا من أجل جميع المدن، بل جميع الأديرة أيضًا.

(٣) Cyrille d'Alexandrie, *Lettres festales* (I-VI), SC 372, Paris, 1991, p. 95-96. المقال ١٠: ٢ في CSEL XIII, p. 286-287

المخطوطات منه بتسع وعشرين رسالة تُعلن زمن عيد الفصح من سنة ٤١٤ إلى سنة ٤٤٤[٤]. أمّا نحن، فنتوقّف بشكل خاصّ عند الرسائل التي حفظها لنا التاريخ من أثناسيوس الذي خلف الإسكندر على كرسيّ الإسكندريّة سنة ٣٢٨[٥].

١ - اللائحة السريانيّة

كتب أثناسيوس في اليونانيّة، ولكنّ رسائله كانت تترجم، شأنها شأن رسائل كيرلّس بعده، إلى السريانيّة كما إلى اللاتينيّة[٦]. أمّا في السريانيّة، فنقرأ لائحة تشير إلى الشهر الفصحيّ لكلّ من السنوات والأيّام، و«إنديقطيون»[٧] والقنصل الرومانيّ، ومدبّر الإسكندريّة،

---

(٤) المرجع السابق ص ١١٣. رُقّمت هذه الرسائل من ١ إلى ٣٠. سُقّف كيرلّس في ١٧ تشرين الأوّل سنة ٤١٢. فلم يبعث برسالة سنة ٤١٣. كما أنّه لم يرسل رسالة سنة ٤٤٣ ولا سنة ٤٤٤، حيث توفّي في ٢٧ حزيران.

(٥) J. Quasten, *Initiation aux Pères de l'Eglise*, vol III, Paris, 1962, p. 46ss. تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة، المكتبة البولسيّة، ٢٠٠١، ص ٤٥١-٤٧١.

(٦) إعتذر إيرونيمُس في إحدى رسائله بأنّه تأخّر في ترجمة رسالة تيوفيلُس لفصح سنة ٤٠٤.
Jérome, *Lettres*, éd. J. Labourt, CUF Paris, TV, éd. Hilberg, CSEL LX, p. 159-181.
رجّح نشرة إنيك مرّتين لكودكس ڤيرونا ٦٠ الذي يعود إلى القرن الثامن في *Histoire acéphale*, SC n° 317, Paris, 1985, p. 138-169.

(٧) في الفرنسيّة: Indiction: الرتبة التي تحتلّها سنة في حقبة تتألّف من خمس عشرة سنة في إطار الحساب الكنسيّ. نشير هنا إلى المحاولات التي قدّمت حساب السنوات من أجل الاحتفال بعيد الفصح. مثلًا: جعل ديمتريوس الإسكندرانيّ هذه الحقبة تمتدّ إلى ثماني سنوات، وهيوليُس الرومانيّ إلى ستّ عشرة سنة، وبطرس أسقف الإسكندريّة إلى تسع عشرة سنة. راجع حاشية ٣، ص ٧٦-٧٨.

والأناقة أو قاعدة القمر[٨] وكلّ ما يُسمّى آلهة[٩]، والسبب الذي لأجله لم تُرسل الرسالة أو أرسلت من أرض غريبة[١٠]. يبدأ نصّ اللائحة كما يلي: «من رسائل العيد»[١١] للبابا[١٢] أثناسيوس[١٣].

---

(٨) هـ ف ا ق ط ا، في السريانيّة. في اليونانيّة Epaktai (hemerai) أو الأيّام التي تضاف على السنة القمريّة لتوافق مع السنة الشمسيّة. وحين يعرف الفلكيّ هذا، يعيّن عمر القمر في الأوّل من كانون الثاني، ويعتبر أنّ القمر الجديد هو صفر وبعده تسير السنة مسيرتها.

(٩) هي الآلهة الكواكب السبعة التي بها ارتبطت أيّام الأسبوع. الشمس لليوم الأوّل (dies soli). والقمر (dies lunae, Lundi) لليوم الثاني، (Mardi, Mars) للثالث أو الثلثاء. (Mercure, Mercredi) للرابع أو الأربعاء، للخامس أو الخميس (Jeudi, Jupiter, Jovis)، للسادس أو الجمعة (Vendredi, Venus)، للسابع أو السبت (Samedi, Saturne, Saturday). هي قسمة قديمة لأسبوع في سبعة أيّام، تعود إلى بلاد الرافدين واستعملها اليهود. ولكنّها لم ترتبط بعلم الفلك إلّا في القرن الثالث ق.م. وأخذ بها المسيحيّون رغم ارتباطها بالآلهة الوثنيّة، ولكنّهم بدّلوا اسم اليوم الأوّل فصار يوم الربّ dimanche, dies dominica.

Boll, «Hebdomas» in *Real-Encyclopädie der classischen Altertumuswissenchaft*, 7/2/1912/ p. 2547 – 2578.

W. et H. Gundel, *Planeten*, 20/2, 1950, p. 2017-2185.

(١٠) مثلًا، كان أثناسيوس، سنة ٣٤٣ في Sardique (تركيّا)، وسنة ٣٦٤ في أنطاكية.

(١١) في السريانيّة: ا غ ر ت ا. ع ا د ن ي ت ا: الرسائل العيديّة.

(١٢) هو الاسم الذي يحتفظ به إلى اليوم بطاركة مصر. وهو يقابل «أسقف» في «التاريخ اللامعنوّن». *Histoire acéphale*, 5, 14 (SC 317, p. 169)

٥: ١٤: نقرأ: «توفّي أثناسيوس في اليوم الثالث من شهر بخوم وقبل رقاده بخمسة أيّام رسم بطرس أسقفًا epsicopus وهو من القسس القدماء، الذي يتبعه في كلّ مكان، ثمّ دبّر الأسقفيّة (الأبرشيّة). بعده، تسلّم أخوه تيموتاوس الأسقفيّة، أربع سنوات. وبعد هذا الأخير، رسم الشمّاس تيوفيلُس بابا papa أي أسقف epsicopus، *Histoire acéphale*, 5, 14 (SC 317, p. 169)

نشير هنا إلى أنّ لائحة «الرسائل العاديّة» للقدّيس مار أثناسيوس سنة ٣٦٣، تذكر ٧ بخوم أي ٢ أيّار.

(١٣) هذا هو عنوان النصّ السريانيّ لرسائل العيد «للقدّيس مار أثناسيوس». ترجمة Micheline Albert, *Index syriaque des lettres festales, d'Athanase d'Alexandrie*, SC 317, Paris, 1985, p. 224-225.

ويتابع النصّ السريانيّ: «رسائل العيد لأثناسيوس، أسقف الإسكندريّة، التي أرسلها كلّ سنة إلى كلّ المدن، كلّ الأبرشيّات الخاضعة له أي من بنتابوليس وليبيا إلى أمونياقي والواحتين الصغرى والكبرى، ومصر وأغوسطامنيتي مع القسمات[١٤] وتيباثيس[١٥] العليا والوسطى، من السنة ٤٤ لزمن دِيُوقليطيانُس، التي فيها كان عيد الفصح في التاسع عشر من فارموتي، في الثامن عشر قبل غرّة[١٦] أيّار في الثامن عشر من القمر. يوم ترك الإسكندر سابقُه الحياة في الثاني والعشرين من فارموتي، جلس (أثناسيوس) على الكرسيّ (الأسقفيّ) في الرابع عشر من فاهوني في الإيندِيقطيون الأولى، في قنصليّة أيانواريس ديوسقُس. وكان المدبّر[١٧] زيناوس (الإيطاليّ) حاكم[١٨] مصر في الأناقة[١٩] الخامسة والعشرين في الأوّل لما يُسمّى آلهة»[٢٠].

ماذا نكتشف في هذا النصّ الذي أرسل سنة ٣٢٧-٣٢٨ الذي يقابل سنة ٤٤ للإمبراطور دِيُوقليطيانُس؟ إنّ أثناسيوس، أسقف الإسكندريّة، يبعث برسالة كلّ سنة إلى الأماكن الخاضعة له. سواء كانت المدن أو الأبرشيّات التي كانت في الأصل مقاطعات إداريّة قبل أن تصبح تسمية لتقسيمات كنسيّة. ويذكر أوّلًا بنتابوليس أو المدن الخمس أو بلاد القيروان على الشاطئ الإفريقيّ[٢١]. ثمّ ليبيا السفلى ومصر والمقاطعة التي عاصمتها تيبة، في مصر الجنوبيّة. تلك هي مقاطعات أربع استحدثها دِيُوقليطيانُس (٢٤٥-٣١٣). وبعد سنة ٣٤١، أضيف إليها القسم الشرقيّ

---

(١٤) Nome من اليونانيّة nomos: قسمة إداريّة عرفتها مصر القديمة.

(١٥) Thébaïde القسم الجنوبيّ في مصر (عاصمته تيبة) حيث ازدهرت الحياة الرهبانيّة بشكل خاصّ.

(١٦) Calendes اليوم الأوّل في الشهر، عند الرومان.

(١٧) «م د ب ر ن ا» في السريانيّة.

(١٨) Eparque يقابل رئيس أبرشيّة على المستوى الدينيّ.

(١٩) Epacte رج حاشية ٨.

(٢٠) حاشية ١٣، ص ٢٢٤-٢٢٧ (النصّ السريانيّ ويقابله النصّ الفرنسيّ).

(٢١) تقابل الجزء الشماليّ الشرقيّ لليبيا الحاليّة.

من مصر (أغوسطامنيقي)[٢٢].

وذُكرت بعد ذلك أسماء قديمة لوحدات إداريّة مثل أمونياقي أو واحة آمون، التي ارتبطت بليبيا، والتسمات السبع[٢٣] الواقعة جنوبيّ الدلتا، والتي ارتبط أربع منها بمصر ثمّ بقسمها الشرقيّ[٢٤]، وثلاث بمنطقة تيبة[٢٥]. وذكر النصّ أيضًا الواحة الصغرى، وهي قسمة إداريّة ارتبطت بمصر، والواحة الكبرى التي ارتبطت بتيبائيس. وأخيرًا، تقسيمات تيبائيس العليا والسفلى التي تشهد النصوص بوجود حاكم عليها منذ سنة ٢٩٨-٣٠٠[٢٦]. ودُعيت تيبائيّة السفلى هنا، تيبائيّة الوسطى لكي تعارض الأرض السفلى، أو الدلتا، التي ستُذكر سنة ٣٣٤[٢٧].

وتحدّد يوم العيد. في ١٤ نيسان سنة ٣٢٨. نشير هنا إلى أنّ حساب الأعياد المعمول به في الإسكندريّة هو حساب التسع عشرة سنة، الذي أطلقه أناتوليس، أسقف اللاذقيّة، في منتصف القرن الثالث، وأُصلح فيما بعد. إنّ هذا الإصلاح الذي ربط زمن الفصح بزمن ديوقليطيانُس، يُنسب إلى بطرس، أسقف الإسكندريّة، في مقال حول الفصح، حيث السنة الأولى في الدورة الجديدة تتوافق مع بداية السنة المدنيّة (واحد تحوت) للسنة العشرين لهذا الإمبراطور، أي سنة ٣٠٣-٣٠٤. في الواقع، يعود

---

(٢٢) J. Lallemand, *L'administration civile de l'Egypte, de l'avènement de Dioclétien à la création du diocèse*, Bruxelles, 1964, p. 41-55.

(٢٣) Heptanomia تزج حاشية ١٤.

(٢٤) Augustamnique

(٢٥) H. Gautier, *Les nomes d'Egypte*, Paris, 1935, p. 175.

(٢٦) T. C. Skeart, *Papyri from Panopolis in the Chester Beatty Library*, Dublin, 1964, I (295) L. 5, 7-9, 18, 25, 78, 79; H.I. Bell, V. Martin, E.C. Turner, D. Van Berchem, *The Abinnaeus Archive*, Papers of a Roman officer in the Reign of Constantius II, Oxford, 1962, p. 36 n. 5.

(٢٧) راجع حاشية ١٣، ص ٢٣١ حيث نعرف أنّ أثناسيوس زار «الأرض السفلى» (ا ت ر ا. ث ح ت ي ا) قبل أن يُدعى إلى سينودس في قيصرية فلسطين.

هذا الإصلاح إلى سنة ٣٢٣[٢٨] كسنة أولى في دورة تمتدّ على تسع عشر سنة، أي في عهد الإسكندر، خلف بطرس على كرسيّ الإسكندريّة، وبعد اضطهاد سنة ٣٠٣-٣١٢ الذي ليس بالزمان المؤاتي لمثل هذا الإصلاح الليتورجيّ. وجاء التطبيق سهلًا جدًّا بحيث كان زمن الفصح هو هو في الكلندارين خلال السنوات الستّ الأولى، أي من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٨.

لا شكّ في أنّنا لسنا هنا أمام الرسالة «الفصحيّة» الأولى من رسائل العيد لأثناسيوس، لأنّ الإسكندر سلفه كان بعدُ حيًّا، وقد توفّي في ١٧ نيسان، أي بعد عيد الفصح بثلاثة أيّام. ولم يجلس أثناسيوس على كرسيّ الإسكندريّة إلّا في ٨ حزيران[٢٩]. وذكر النصّ قنصلين، كما ذكر مدبّر مصر وحاكمها. لا نعرف شيئًا عن أيانواريئوس ويوسطُوس اللذين كانا سنة ٣٢٨. أمّا زيناوس فكان من إيطاليا، باسم سبتيميوس زيناوس، وحكم سنة ٣٢٨ و٣٢٩.

وهكذا نجد في رأس الرسائل الفصحيّة أسماء الحكّام الذين تعاقبوا على تدبير أمور مصر. قد يكون هناك تضارب في المعلومات أو نقص. ولكنّ البرديّات تساعدنا على مقابلة اللوائح، كما مراسلة ليبانيوس سنة ٣٥٦[٣٠]. وتذكر اللائحة، السنة التي فيها بدأ «المدبّر» حكمه، كما تذكر موطنه. هي تتحدّث عن أربعة وعشرين منهم، فترى القسم الأكبر منهم (١٨ حاكمًا) جاءوا من المقاطعات الشرقيّة في الإمبراطوريّة، بل من

---

(٢٨) M. Richard, «Le comput pascal par Octaétéris» dans *Le Muséon*, 87, 1974, p. 307-339,

يعتبر أنّ الإصلاح حدث بين سنة ٣١٠ وسنة ٣٢٨، ويقترح بالتحديد سنة ٣٢٣.

(٢٩) يوم السبت. كانت عادة الإسكندريّة أن يكرّس الأساقفة يوم سبت (الباترولوجيا الشرقيّة ٣١: ٢، ص ٣٥١)، فاختلفت عن كنيسة رومة التي تكرّس أساقفتها يوم أحد (التقليد الرسولي، «الينابيع المسيحيّة»، ١١ مكرّر، ص ٤٠).

(٣٠) C. Vandersleyen, *Chronologie des préfets d'Egypte de 284 à 395*, Bruxelles, 1962, coll. *Latomus* 55, part. Ch. 15.

مقاطعات مجاورة: من فلسطين وفينيقيا وسوريا. أمّا الستّة الباقون الذين جاءوا من المقاطعات الغربيّة، فقد جاء منهم أربعة من إيطاليا، والرسالة الأولى تتيح لنا أن نعرف الاسم الكامل لزيناوس.

بعد هذه المقدّمة، نقرأ عنوان الرسالة الأولى التي أرسلها أثناسيوس من أجل عيد سنة ٣٢٩. «في (السنة) التالية، كان أحد الفصح في الحادي عشر من فارموتي، في الثامن قبل عيدس[٣١] نيسان والحادي والعشرين للقمر في قنصليّة قسطنطين القدّوس[٣٢] الثامنة والرابعة في (قنصليّة) قسطنطين، وكان زيناوس نفسه مدبّر مصر وحاكمها. الإيندِيقطيون الثانية، الأناقة السادسة. الثانية للآلهة»[٣٣] بعد ذلك، أضاف الجامع: «لا شكّ في أنّ هذه هي الرسالة الأولى التي أرسل، لأنّ السنة التي سبقت هذه، تكرّس فيها بعدَ العيد[٣٤]، كما عُرف، بحيث إنّ الإسكندر أدرك فأرسل رسالة قبل أن يترك هذه الحياة. إذن، كانت السنة الخامسة والأربعون لديوقليطيانُس».

في السنة التالية، كان العيد في ١٩ نيسان ٣٣٠، وقد زار فيها تيانيس، وسنة ٣٣١، وقع العيد في ١١ نيسان. أرسل الأسقف الرسالة وهو في طريق العودة من البلاط الإمبراطوريّ. فقد مشى إلى بلاط الملك العظيم قسطنطين الذي أرسل في طلبه لأنّ أعداءه اتّهموه بأنّه أقيم أسقفًا وهو بعد شابّ. فلمّا حضر وُجد أهلًا للقبول[٣٥] والكرامة وهكذا عاد يوم وصلت الكنيسة إلى نصف الصوم[٣٦].

---

(٣١) Ides في السريانيّة: إيدون: الخامس عشر من أشهر آذار، أيّار، تموز، تشرين الأوّل، والثالث عشر في الأشهر الباقية، في الكلندار الرومانيّ.

(٣٢) هذا هو معنى Augustos. ترجمت السريانيّة: «سجيدًا» أي المسجود له. الإيندِيقرطيون الثانية، الأناقة السادسة، الثانية للآلهة.

(٣٣) حاشية ١٣، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٣٤) العيد الكبير، أو عيد الفصح والقيامة.

(٣٥) أي أن يُقبل في درجة الأسقفيّة.

(٣٦) حاشية ١٣. ص ٢٢٨-٢٢٩. هي الرسالة الثالثة. في الرسالة الرابعة نعرف أنّ أثناسيوس زار بتابوليس وأموثياقي...

في الرسالة الثامنة، نعرف أنّ العيد وقع في ١٨ نيسان ٣٣٦. مضى أسقف الإسكندريّة إلى سينودُس أعدائه الذين اجتمعوا في صور. ما كان يستطيع التهرّب من دعوة جاءت إليه من قبل الإمبراطور، وإلّا تعرّض للمنفى[٣٧]. إذن، انطلق من الإسكندريّة. ولكن حين رأى بجلاء الفخّ المهيّأ له، صعد من هناك وهرب إلى القسطنطينيّة بعد أن استفاد من سفينة وُجدت هناك، فوصل في التاسع والعشرين من تشرين الأوّل. وبعد ثمانية أيّام، حضر أمام الملك قسطنطين. ومع أنّه نال تأكيد ثقة، إلّا أنّ أعداءه زعزعوا الملك بافتراءات مختلفة. فحُكم عليه في الحال بالمنفى. فمضى في ٦ تشرين الثاني إلى غالية[٣٨] لدى قونسطَاس قيصر، ابن أوغوسطُس. من أجل هذا لم يكتب رسالة العيد[٣٩].

٢ – الرسالة العاشرة

تلك هي مقاطع من «اللائحة السريانيّة لرسائل العيد لأثناسيوس الإسكندرانيّ» جُعلت مقدّمةً للرسائل الفصحيّة التي كتبها أثناسيوس بين سنة ٣٢٩ وسنة ٣٧٣. إحتفظ التقليد السريانيّ بستّ عشرة منها بما فيها من نقص، مع أربعة مقاطع. كلّ هذا نقرأه في مخطوط في المكتبة البريطانيّة (١٤٥٦٩)، وجاء من الإسقيط في مصر، ويعود إلى القرن الثامن. نستطيع أن نرافق هذه الرسائل فنعرف الكثير عن مصر وكنيستها وما عمله بطريركها أثناسيوس. ولكنّنا نودّ أن نقدّم الرسالة العاشرة (كما

---

(٣٧) رج الدفاع ضدّ الأريوسيّين ٧١: ٢.

A. Martin, «Athanase et les Mélétiens», dans *Politique et Théologie chez Athanase d'Alexandrie*, Paris, 1974 (coll. Théol. Hist., n° 271, p. 31-61: ici p. 33-34, 61.

(٣٨) ما يقابل فرنسا الحاليّة.

(٣٩) حاشية ١٣، ص ٢٣٢-٢٣٥. في السنة التالية، التي وقع العيد في ٣ نيسان سنة ٣٣٧، لم يكتب أثناسيوس رسالة، لأنّه كان بعد في غالية.

نشرها كيورتون)[٤٠] التي تعود إلى سنة ٣٣٨، فتعطينا نظرة واسعة عن كنيسة مصر.

بعد أن نقدّم أجزاء من هذا النصّ، نعود لنقرأ ما يتعلّق بحياة أثناسيوس خلال سنوات من الاضطراب عرفها هذا الأسقف بسبب دفاعه عن مجمع نيقية.

أ – نصّ الرسالة

«هذه هي العاشرة[٤١] (وقد كُتبت) في قنصليّة أورسوس وفولميوس[٤٢] في زمن تاودوروس[٤٣] نفسه الذي من مدينة هليوبوليس[٤٤] ومدبّر كاثوليكيّ[٤٥] خلفه بعد سنتين فيلاغريوس[٤٦]،

---

(٤٠) W. Cureton, *The festal Letters of Athanasius*, Londres, 1848, p. 45-52 et suppl. P. 15-17. La *P.G.* 26c. 1397-1403 reproduit la traduction latine de A. Mai, *Novae Patrum Bibliothecae*, tomus sextus, continens in parte Ia Sancti Athanasii epistolas festales syriace et latine cum chronico et fragmentis aliis, Romae, 1853, p. 85-97.
كانت ترجمة عن السريانيّة إلى الإيطاليّة، ومن الإيطاليّة إلى اللاتينيّة. نشير هنا إلى أنّنا لا نمتلك شيئًا من الأصل اليونانيّ.
F. Larsow, *Die Festbriefe des heiligen Athanasius. Ausdem syrischen übersetzt und mit Anmerkungen erläutert*, Leipzig, Göttingen, 1852; R. Lorenz, *Der Zehne Osterbrief des Athanasius von Alexandrien*, de Gruyter, Berlin, New-York, 1986 (Text, Übbersetzung, Erläuterungen, BZNW, 49).

(٤١) أي الرسالة العكترية. منا يبدأ النصّ في ص ٤٥ من النصّ السريانيّ. رج الحاشية السابقة.

(٤٢) حاشية ١٣، ص ٢٣٦-٢٣٧، الرسالة العاشرة.

(٤٣) فلافيوس أنطونيوس تاودورُس. أصله من هليوبوليس في فينيقيا. خلف فيلاغريوس (حاشية ١٣، ص ٢٣٦-٢٣٧) قبل الأوّل من كانون الثاني سنة ٣٣٨.

(٤٤) مدينة الشمس أو بعلبكّ في لبنان.

(٤٥) أي صاحب الإيمان الشامل. يقابل: أرثوذكسيّ كما في المقال الأوّل ضدّ الأريوسيّين (الآباء اليونان ٢٠: ٢٦أ) حيث نقرأ: «الذين يزعزعون الإيمان الرسوليّ، لا ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكيّة».

(٤٦) أصله من كبادوكية (في تركيّا). كان حاكم مصر سنة ٣٣٥-٣٣٧ ثمّ سنة=

أنديقياطون ١١، وفيها اليوم السابع قبل غرّة نيسان هو الأحد، في الثلاثين من فارموتي[٤٧]، في الثامن عشر من القمر، في السنة ٥٤ لديوقليطيانُس.

«في الحقيقة، يا أخوتي، مع أنّي هجرتُكم وابتعدتُ عنكم، إلّا أنّي لم أنسَ العرف المعروف لديكم، بعد أن انتقل إلينا من الآباء، الذي يجعلني لا أقول شيئًا ولا أعرّفكم بزمن العيد السنويّ المقدّس ويوم الاحتفال به.

«فمع أنّي عرضة للمضايقات التي سمعتم بها، في أيّ حال، ومع أنّ المِحَن القاسية سقطت عليّ، وباعدت بيننا المسافات، وراقبنا أعداءُ الحقّ، وتآمروا ليحصلوا منّا على رسالة لكي يتّهمونا ويضيفوا أيضًا على جراحاتنا عذابًا. ولكنّ الربّ قوّانا الآن، وعزّانا في شدائدنا. لهذا، لا نتردّد أيضًا ونحن عرضة لهذه العداءات والمؤامرات، أن نريكم من أصقاع الأرض[٤٨]، وأن نعرّفكم بفصحنا الخلاصيّ. وشجّعتُ أيضًا كهنة الإسكندريّة حين كتبتُ إليهم[٤٩]. (وطلبت) منهم أن يهتمّوا بأن يُرسلوا إليكم تلك الرسائل، لأنّي أعرف الرعب الذي ينزل بهم هم أيضًا من قبل الأعداء. وها أنا أحثّكم لتذكروا الفرّيسيّ[٥٠]: «لا شيء يفصلني عن محبّة المسيح، لا الشدّة، ولا الضيق ولا الاضطهاد ولا الجوع ولا العري ولا الخطر ولا السيف»[٥١].

=٣٣٨-٣٤٠. في ٢٢ آذار ٣٣٩؛ أجلس هذا الحاكم على كرسيّ الإسكندريّة غريغوريوس الأريوسيّ، وظلّ أمينًا لقضيّة أريوس بعد مجمع سرديك سنة ٣٤٣ ج.
A.H.M. Jones, J.R. Martindale, J. Morris, *The Prosopography of the Later Roman Empire*, Cambridge, 1971, p. 694.

(٤٧) أي ٢٦ آذار سنة ٣٣٨.

(٤٨) كان أثناسيوس في المنفى، في بلاد غالية (فرنسا).

(٤٩) يلمّح أثناسيوس هنا إلى رسائل سبقت هذه الرسالة.

(٥٠) هو بولس الرسول الذي يقول في أع ٢٣: ٦: «أنا فرّيسيّ ابن فرّيسيّ».

(٥١) رسالة بولس إلى رومة ٨: ٣٥. هكذا دلّ الأسقف على أنّه متّحد بكنيسته رغم بُعد المسافات التي تفصل الراعي عن رعيّته.

«فلو فهم[٥٢] (الخصوم) ما كُتب في المزامير، لما كانوا ثاروا باطلًا على المخلّص، حين يقول الروح: «لماذا اضطربت الشعوب، ولماذا نوت الأمم الباطل»[٥٣]. فلو أخذوا بعين الاعتبار نبوءة موسى[٥٤] لما كانوا عرّضوا حياتهم[٥٥]. ولو وعوا ما في كُتبنا، لما كانوا تجرّأوا فتلفّظوا بنبوءات تعنيهم بحيث إنّ مدينتهم ستدمّر الآن[٥٦]، والنعمة ستتركهم، فيُستبعدون حتّى عن الشريعة ولا يُعلنون بعد أبناء، بل غرباء[٥٧]. هذا ما أُعلن في المزامير، فقيل: «الغرباء، غرّروا بي»[٥٨]. وقال النبيّ أشعيا: «ولدتُ بنين ورفعتهم، أمّا هم فاستهانوا بي»[٥٩].

«لا يُدعون شعب الله ولا أمّة مقدّسة، بل أسياد سدوم وشعب عمورة لأنّهم تجاوزوا شرّ أهل سدوم، بحسب ما قال النبيّ أيضًا: «كانت سدوم أبرّ منك، يا أورشليم»[٦٠]. فإن كان أهل سدوم خطئوا ضدّ الملائكة[٦١]، فهؤلاء تجرّأوا فقتلوا الربّ الإله، ملك كلّ شيء وسيّد الملائكة. لم يفهموا أنّ هذا المسيح الذي قتلوه، هو حيّ. وإنّ هؤلاء اليهود الذين تآمروا على الربّ قد ماتوا: إبتهجوا بعض الوقت قليلًا، ثمّ سقطوا إلى الأبد.

---

(٥٢) نبدأ هنا مقطعًا جديدًا حول عمى الخصوم الذين لا يريدون أن يقرأوا الكتب المقدّسة.

(٥٣) مز ٢: ١. حاول المترجم أن يكون قريبًا من النصّ الكتابيّ كما في السريانيّة البسيطة. قرأنا هنا فعل «ن ف ر»، نفر، هاج... وفي الرسالة ١١ نقرأ: «ا ش ت ع ل ي» أي تعالى وترفّع.

(٥٤) رج تث ١٨: ١٨؛ ٣٤: ١٠؛ أع ٣: ٢٢-٢٣: «سيقيم الربّ إلهكم من بين إخوتكم نبيًّا مثلي».

(٥٥) تث ٢٣: ٦٦. نقرأ هذه العبارة كما في البسيطة: «وتكون حياتكم معلّقة بين الموت والحياة».

(٥٦) إر ٤: ٢٧-٢٩: «سأضرب الأرض كلّها...».

(٥٧) رج غل ٤: ٧؛ أف ٢: ١٩.

(٥٨) في العبريّة: قاموا عليّ، كما في السريانيّة البسيطة.

(٥٩) أش ١: ٢. في العبريّة: تمرّدوا عليّ (ف ش ع). في اليونانيّة: قاموا عليّ.

(٦٠) يبقى النصّ بعيدًا عن الكتاب المقدّس. رج مرا ٤: ٦؛ حز ١٦: ٤٨.

(٦١) تك ١٩: ٥ وما يتبع شرح ذلك في التراجيم وأدب ما بين العهدين.

«وأخطأوا[٦٢] أيضًا حين ظنّوا أنّ الوعد الذي يبقى ثابتًا، لا ينطبق على الملذّات الزمنيّة، بل على رجاء الخيرات الأبديّة[٦٣]. فبمضايق عديدة وأتعاب وعذابات، يدخل القدّيس إلى ملكوت السماوات. وحين يبلغ إلى حيث لا يعود ألم ولا ضيق ولا بكاء، يجد عند ذاك الراحة[٦٤]. هكذا صار أيّوب خليل الله، بعد أن جُرّب. أمّا الذي يحبّ الملذّات، فيحيا حياة البهجة بعض الوقت، ولكنّ حياته تصير بعد ذلك حزينة، على مثال عيسو الذي خسر كلّ شيء، بعد أن أخذ طعامًا عابرًا[٦٥]. لا شكّ في أنّه يقال إنّ هناك صورة تصوّر هذا الموضوع: خروج بني إسرائيل والمصريّين من مصر.

«إبتهج المصريّون بعض الوقت بما أجرموا ضدّ إسرائيل، ولكن حين خرج هؤلاء، سقط (المصريّون) في عمق اللجج. أمّا شعب إسرائيل، فحين خرج من مصر[٦٦]، بعد أن ضربه الخدّام وجرّحوه، مع أنّهم كانوا يقومون بعملهم، فقد عبر البحر بدون ضرر[٦٧] وعبر البرّيّة[٦٨] كما في أرض مأهولة. ومع أنّ الموضع حُرم من بشر يقيمون فيه، إلّا أنّه لم يُحرَم من طيّبات الشريعة، ولا من الألفة مع الملائكة[٦٩]، بل كان أفضل من أرض مأهولة: فأليشع تخيّل هو أيضًا أنّه وحده في البرّيّة، فإذا هو في رفقة الملائكة[٧٠]. عرف الشعب أوّلًا الضيق، وأقام في البرّيّة، والذين

---

(٦٢) يبدأ هنا مقطع يتحدّث عن الرجاء في الخيرات الأبديّة.

(٦٣) تي ١: ٢: «رجاء الحياة الأبديّة».

(٦٤) أش ٣٥: ١٠: «يتبعهم السرور والفرح، ويهرب الحزن والتحيب».

(٦٥) رج ما حصل لعيسو يوم باع بكوريّته (تك ٢٥: ٢٩-٣٤). استخفّ في البداية. ولمّا نال أخوه البركة «صرخ عاليًا بمرارة» (تك ٢٧: ٣٤).

(٦٦) هنا تبدأ صفحة ٤٨ من النصّ السريانيّ الذي نشره كيورتون.

(٦٧) رج خر ١٤: ٢٢ ومرور بني إسرائيل في وسط الماء.

(٦٨) هذا ما يتحدّث عنه سفر الخروج منذ ف ١٦ وما يلي.

(٦٩) نقرأ في خر ٢٣: ٢٠: «ها أنا أرسل أمامكم ملاكًا يحفظكم في الطريق». رج ٢٣: ٢٣؛ ٣٢: ٣٤؛ ٣٣: ٢؛ عد ٢٠: ١٦.

(٧٠) رج ١ مل ١٩: ٥، ٧ الذي يتحدّث عن إيليّا، لا عن أليشع: لمسه الملاك وكلّمه.

تمسّكوا بالرجاء، دخلوا إلى أرض الوعد. ونقول أيضًا الشيء عينه عن الذين يكتبون هنا زمنًا يسيرًا. فإن ثبتوا، بلغوا إلى النهاية، إلى الراحة. أمّا الذين يضطهدون (الآخرين) هنا، فيُسحقون ولا يعرفون نهاية سعيدة.

«فهكذا[٧١] قبِلَ ربُّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الألم، حين أراد أن يعلّم البشر: ضُرب فتحمّل بصبر[٧٢]. شُتم فما ردّ على الشتيمة بالشتيمة[٧٣]. تألّم وما هدّد أحدًا، بل قدّم ظهره للضرب ووجهه للطم، وما مال عن البصاق[٧٤]، وفي النهاية، اقتيد بإرادته إلى الموت[٧٥]. فبقدر ما نحتي فيه صورة الكمال التامّ والخالد، وحين يسلك كلّ واحد منّا بحسب هذا المثال، ندوس حقًّا الحيّات والعقارب وكلّ قوّة العدوّ[٧٦] وإذ سلك بولس على مثال الربّ، حثّنا نحن أيضًا فقال: «إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح»[٧٧]. وهكذا تغلّب على ما يحمله المفتري من شكوك فكتب: «وأنا على يقين أنّ لا الموت ولا الحياة، ولا الملائكة ولا الرؤساء، ولا الحاضر ولا المستقبل، ولا القوى، ولا العلوّ ولا العمق، ولا أيّة خليقة تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح»[٧٨].

«ففي المضايق والمِحَن والأتعاب، يقترب العدوّ، فيجدّ ويعجّل في تدميرنا. ولكنّ الإنسان الذي في المسيح، وإن واجهته الشدائد، يقابل

---

(٧١) نبدأ هنا في ص ٤٩ من النصّ السريانيّ، مقطعًا جديدًا حول المسيح الذي فيه يجد المؤمن قوّته. رج تجسّد الكلمة: ١١: ٣، الينابيع المسيحيّة، ١٩٩، ص ٣٠٤.

(٧٢) أش ٥٣: ٤-٧.

(٧٣) ١ بط ٢: ٢٣: «ما ردّ على الشتيمة بمثلها. تألّم وما هدّد أحدًا». تذكّر أنّ رسالة بطرس الأولى تتوسّع هنا في نشيد عبد الربّ الرابع، الذي تألّم فاقتدى الكثيرون بآلامه. وقد طبّقت الكنيسة نصّ أشعيا (٥٢: ١٣-٥٣: ١٢) هذا على المسيح، بحيث اعتبره آباء الكنيسة «الإنجيل الخامس».

(٧٤) رج أش ٥٠: ٦. هذا ما يسمّى نشيد أشعيا الثالث حول عبد الربّ.

(٧٥) أش ٥٣: ٨: «انقطع من أرض الأحياء، وضُرب لأجل معصية شعبه».

(٧٦) لو ١٠: ١٩. أمّا العدوّ فهو إبليس. رج مت ١٣: ٣٩.

(٧٧) ١ كور ١١: ١.

(٧٨) روم ٨: ٣٨-٣٩.

الغضب بالصبر، والشتيمة بالتواضع، والشرّ بالفضيلة، فيتصر في ما يعمل ويقول: «أنا قادر على كلّ شيء بالمسيح الذي يقوّيني»[٧٩]. ويقول: «إنتصرنا على الجميع بمعونة المسيح الذي أحبّنا»[٨٠]: تلك هي نعمة الربّ، وتلك هي أعمال الربّ العادلة وسط البشر.

«فقد تألّم ليعدّ اللاألم لهذا الإنسان الذي تألّم فيه. ونزل لكي يصعدنا. واختبر برضاه الولادة لكي نحبّ ذاك الذي لم يُولد (كما يولد البشر). وتنازل حتّى الفساد ليلبس الفاسدُ عدمَ الموت. وصار ضعيفًا لأجلنا لكي يثبّتنا في القوّة، ونزل إلى الموت لكي يهبنا الخلود ويُحيي الموتى. وفي النهاية، صار إنسانًا، لكي نحيا نحن البشر الماتين، ولا يكون الموت سائدًا علينا كما من قبل. فالموت لا يتسلّط علينا، كما أعلن الرسول في كلامه[٨١].

وبعد أن يهاجم أثناسيوس الهراطقة[٨٢]، يرفع المجد لله قائلًا: «إذن نحتفل بهذا الطريق الذي أصلحه لأجلنا للخلاص، وبهذا اليوم المقدّس، يوم الفصح، نحتفل مع الملائكة بهذا العيد في السماء.

«فبعد أن عبر الشعب اليهوديّ، في الماضي، من الضيق إلى الخلاص، أقام عيدًا وأنشد نشيد الظفر[٨٣]. فهذا الشعب الذي نجا من موت محتّم، في زمن أستير، صنع عيدًا إكرامًا للربّ، عيدًا يليق به... ونحن أيضًا حين نُصعد إلى الربّ طلباتنا ونعترف بخطايانا، نعيّد للربّ كما يجب ويليق، ويمجّد الربّ الذي عاقبنا قليلًا، ولكنّه لم يتركنا ولم يتخلّ عنّا... أخرجنا نحن أيضًا من مصر المليئة بالكذب والرامزة إلى أعداء المسيح، واقتادنا عبر المِحَن العديدة والمضايقات، كما في برّيّة،

---

(٧٩) فل ٤: ١٣.

(٨٠) هو كلام قريب من روم ٨: ٣٧.

(٨١) رج روم ٦: ٩ حيث نقرأ: «لا يتسلّط عليه».

(٨٢) ص ٥٠-٥١ في النصّ السريانيّ.

(٨٣) خر ١٥: ١-٢١. البداية: «أنشدُ للربّ جلّ جلاله».

إلى كنيسته المقدّسة. فنحن هنا، وحسب العرف، أرسل إليكم أيضًا رسائل وأتسلّم منكم. لهذا، فوق كلّ شيء[٨٤]، أتوسّل إليكم وأنا أمدح إلهي، أن تمدحوه أيضًا معي، وتمدحوه لأجلي: حاول الذين يقتلون المسيح ويمزّقونه[٨٥] أن يحطّموا التقليد الرسوليّ، وينفوه ويحرموه، ولكنّ الربّ لم يسمح بذلك. ولكنّه أعاد الاعتبار إلى ذلك الذي أقامه بواسطة رسول، وحفظه، لكي نحتفل معًا ونعيّد معًا، بعضنا مع بعض، حسب تقليد الآباء ووصيّتهم.

«إذن[٨٦]، نبدأ صوم الأربعين يومًا في التاسع من شهر مشير، وصوم الفصح المقدّس في الرابع والعشرين من شهر فاريموت. يتوقّف الصوم في التاسع والعشرين من شهر فمينوت هذا، في نهاية مساء السبت. وهكذا نحتفل بهذا الأحد الذي فيه قام، في الثلاثين من شهر فمينوت هذا[٨٧]. وبعد سبعة أسابيع كاملة، نعيّد العنصرة. وإذ نتأمّل منذ الآن هذا، نكون أهلًا لما في الأبد في المسيح يسوع ربّنا، الذي به المجد والإكرام للآب، إلى أبد الدهور. آمين. سلّموا بعضكم على بعض بقبلة مقدّسة[٨٨]، واذكرونا في صلواتكم المقدّسة. جميع الأخوة الذين معي، يسلّمون عليكم ويذكرونكم دائمًا. إليكم أيّها الأخوة الأحبّاء، الذين أودّهم كلّ

---

(٨٤) ص ٥٢ في النصّ السريانيّ.

(٨٥) رج ١ يو ٤: ٣: «كلّ روح يقسم، يمزّق يسوع، لا يكون من الله». ذاك هو موقف أريوس. ويعود أثناسيوس إلى قميص لا يمزّق، قميص المسيح، وإلى فصل الابن عن الآب، مع أنّه لا ينفصل.

(٨٦) ينهي أثناسيوس كلامه بالدعوة إلى الاحتفال بالفصح. راجع في هذا المجال ما سوف يفعله كيرلّس الذي يدعو شعبه للاحتفال بهذا العيد المجيد. رج الرسالة العاشرة:

Cyrille d'Alexandrie, *Lettres festales* (VII-XI), t. II, Paris, 1993, SC 392, p. 184-243; ici p. 240-243.

(٨٧) هذا يعني أنّ صوم الأربعين يبدأ في ١٦ شباط، ويمتدّ صوم الفصح من ٢٠ إلى ٢٥ آذار. ويعيّد الفصح في يوم الأحد في ٢٦ آذار.

(٨٨) روم ١٦: ١٦.

المودّة أن تكونوا معافين».

نهاية رسالة أثناسيوس العاشرة[٨٩].

ب – ماذا نقول في هذه الرسالة؟

بما أنّ الرسالة حدّد زمنها، سنة ٣٣٨، نتوقّف بعض الشيء عند سيرة أثناسيوس خلال تلك السنوات المضطربة. فأسقف الإسكندريّة مضى إلى المنفى، في غالية، بعد مجمع صور، في تمّوز – أيلول سنة ٣٣٥[٩٠]. ولمّا مات الإمبراطور قسطنطين في ٢٢ أيّار سنة ٣٣٧، استعاد الأسقف حرّيّته في ٩ أيلول، وعاد إلى الإسكندريّة في ٢٣ تشرين الثاني من السنة نفسها. ولكنّه لم يقضِ في مدينته سوى سنة واحدة، بعد أن هرب من جديد، في أيّار سنة ٣٣٩، والتجأ إلى رومة.

هذه التفاصيل وغيرها في رسائل العيد[٩١] التي توخّت قبل كلّ شيء أن تحدّد يوم عيد الفصح كلّ سنة، وصلت إلينا في الرسالة السابعة التي كُتبت في الإسكندريّة، في بداية سنة ٣٣٥، وفُقدت الرسالتان الثامنة والتاسعة لستي ٣٣٦-٣٣٧، أمّا الرسالة العاشرة فقرأناها في السريانيّة فقط، وهي تلقي بعض الضوء على تلك الحقبة من حياة أثناسيوس. ونسارع إلى القول بأنّنا لسنا أمام رسالة واحدة، بل أمام أربعة أجزاء ضُمّت بعضها إلى بعض في وقت لاحق.

هناك العنوان الذي يؤرّخ الرسالة: سنة ٣٣٨. أمّا القسم الأوّل

---

(٨٩) راجع ترجمة الرسالة إلى الفرنسيّة:
M. Albert, «La 10e lettre festale d'Athanase d'Alexandrie», in *Parole de l'Orient*, vol VI-VII, (1978-1979, Mélanges Graffin), Kaslik, 1978, p. 69-90, ici p. 75-90.

(٩٠) G. Bardy, «Athanase», in *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*, vol IV, Paris, 1930, col 1324, c'est à Trêves qu'Athanase fut en exil.

(٩١) Lettres festales أو الرسائل الفصحيّة.

الذي يبدأ: «في الحقيقة، يا إخوتي»، ويضمّ مقطعين كبيرين، فيشدّد على أمرين رئيسيّين. في الأوّل، يشتكي أثناسيوس بمرارة بسبب بُعده عن كنيسته، والضيقات وكلّ المِحَن التي يحتملها في أقاصي الأرض. وفي الثاني، يؤكّد على وحدة روحيّة مع كنيسة الإسكندريّة، وحدة عميقة يريد أن يحافظ عليها، وحدة يختمها حضورُ المسيح وسط الذين يجتمعون باسمه. والقسم الثاني يتضمّن أيضًا مقطعين. يشكر فيهما الأسقف الربّ لأنّه أعاده إلى كنيسته. لهذا جاءت اللهجة هادئة، بعد أن زالت العاصفة[٩٢].

وجاء القسم الأخير أطول الأقسام، فانتهى بكلام عن الوحدة بين أثناسيوس وكنيسته. ولكن قبل ذلك جاءت اللهجة قاسية جدًّا مع عاطفتين متضاربتين في قلب الأسقف: أوّلها العنف ضدّ خصومه الذين يسمّيهم عقارب وحيّات وعميانًا لا يفهمون نبوءات العهد القديم. لهذا يجب أن يُسحقوا. وهكذا، ينقسم العالم قسمين، قسم الخير وقسم الشرّ. فالأخيار هم الذين يساندون أثناسيوس، والأشرار هم خصومه الذين لن تكون لهم نهاية سعيدة. والعاطفة الثانية تبحث عن تعزية في قلب المحنة، وتعبّر عن حنين إلى أرض مصر. وفي كلّ هذا، يثق الأسقف أنّه سينتصر على خصومه، وعلى الموت، بعون المسيح.

كلّ هذا بدا بشكل تاريخيّ. ولكن سيأتي دور الهراطقة[٩٣]، الذين يجعل أثناسيوس أقوالهم في لائحة الهرطقات، كما اعتاد الآباء أن يفعلوا. ذكر نظرات أريوس التعليميّة ودعاه المفتري. وهاجم الخصوم «الذين يصرّون بأسنانهم علينا». ثمّ تأتي العقيدة في خطّ ما نقرأه في «تجسّد الكلمة» الذي دوّنه أثناسيوس حوالي سنة ٣٣٦، فبرهن فيه أنّ لا دواء لفساد البشريّة، ولا إصلاح للإنسان إلّا بالتجسّد. وبعد أن علّل التجسّد وموت المسيح وقيامته، دافع عن الإيمان المسيحيّ في هذا

---

(٩٢) هذا ما يقابل نصّ الملحق في نشرة كيورتون: ص ١٥-١٧.
(٩٣) ص ٥٠ في النصّ السريانيّ.

المجال. وردّ على اليهود والوثنيّين[٩٤]. وتحدّث عن المسيح الذي هو قدرة الله وحكمته، الذي هو المخلّص والخلاص. وأضاف هنا لقبين لا نجدهما في «تجسّد الكلمة»، هو المدافع والمحرّر.

هنا نطرح تساؤلًا حول هذه الرسالة العاشرة التي أشرنا إلى أنّها تألّفت من أجزاء دُوّنت في أوقات مختلفة. أما يجب أن يعود كلّ جزء إلى الرسالة التي ورد فيها؟ كلّ ما نجده من إشارة زمنيّة هو عيد الفصح الذي يقع في ٣٠ فمينوت أي ٢٦ آذار. نقرأ هذه الحاشية فنفهم أنّنا حقًّا أمام الرسالة العاشرة حسب لوائح الرسائل الأثناسيّة وأزمنة العيد في كلّ سنة[٩٥].

تلك نهاية الرسالة. أمّا القسم الأوّل فيها فهي رسالة منفى، ويمكن أن تكون أُرسلت سنة ٣٣٦ أو ٣٣٧. إذا عدنا إلى اللائحة[٩٦] التي تسبق رسالة من الرسائل[٩٧] نعرف عن سنة ٣٣٦ أنّ أثناسيوس لم يكتب في ذلك الوقت رسالة العيد[٩٨]. وفي السنة ٣٣٧، احتفلوا بالعيد في ٣ نيسان. ولكن بما أنّ أثناسيوس كان في المنفى، لم يقدر أن يكتب رسالة العيد[٩٩].

تحدّث هذا القسم الأوّل عن المنفى، فبان أنّه يعود إلى سنة ٣٣٦ أو ٣٣٧. والقسم الثاني الذي أبرز فرح العيد، يعود بنا إلى سنة ٣٣٨ حيث عاد أثناسيوس إلى أحبّائه، أو كان هو في طريق العودة. تقول اللائحة: «فيها (= في تلك السنة) توفّي قسطنطين في ٢٧ باخوت (= ٢٢ أيّار). فسُمح له (= أثناسيوس) فعاد من غالية في ٢٧ أتير (= ٢٣ تشرين الثاني)

---

(٩٤) Quasten, *op. cit*, p. 52-53.

(٩٥) حاشية ١٣، ص ٣٠٧-٣٠٩.

(٩٦) chronicon: أحداث ترافق الرسالة.

(٩٧) Mai, *op. cit*, p. 1-18; PG 26, 1351-1360.

(٩٨) حاشية ١٣، ص ٢٣٤-٢٣٠. إحتفلوا بالعيد في ١٨ نيسان ٣٣٦. ونقرأ في نهاية رقم ٨: ١٠: «لهذا السبب، لم يكتب رسالة العيد» (أغرتا عادتيًا).

(٩٩) المرجع السابق، ص ٢٣٤-٢٣٥ مع الفعل السريانيّ «لا إتمصي: لم يقدر».

بمجد كبير (مشبحايت، في السريانيّة)[١٠٠].

والقسم الأخير يعود، على ما يبدو، إلى سنة ٣٣٨، حيث تتوالى أقوال العنف ضدّ الخصوم وكلام الإرشاد. فالصعوبات ما زالت حاضرة، والنصر الذي ناله الأسقف سريع العطب. فالمؤامرات تحاك عليه. وسيعود إلى المنفى قريبًا، ويحلّ محلّه على كرسيّ الإسكندريّة أسقف كبادوكية، اسمه غريغوريوس[١٠١]. وهكذا تكون هذه الرسالة التي حُفظت لنا في اللغة السريانيّة، قد ضمّت عناصر من رسالتين على الأقلّ. ولو وصلت إلينا كاملة، لكانت قدّمت لنا عناصر إضافيّة أخرى.

٣ - رسائل أثناسيوس في القبطيّة

وصلت إلينا رسائل أثناسيوس، رسائل العيد والرسائل الرعويّة، بعد أن نقلت عن اليونانيّة إلى القبطيّة[١٠٢]. ولكن نسارع إلى القول إنّنا لم نجد بينها نصّ الرسالة العاشرة. كما نودّ أن نتحدّث، قبل عرض هذه الرسائل «القبطيّة»، عن دور أثناسيوس في تطوير الطريقة التي بها يُعلم أسقف الإسكندريّة المدن والأديرة بزمن العيد.

مع أثناسيوس تكاثرت رسائل العيد خلال خمس وأربعين سنة من أسقفيّته. إن كان لم يصلنا مخطوط كامل في اليونانيّة، إلّا أنّ التقاليد السريانيّة والقبطيّة والأرمنيّة قد عوّضت. كيف بدت هذه الرسائل: قبل أثناسيوس، كانوا يعلنون عيد الفصح والأسبوع الذي يسبق العيد. ولكنّ مع أثناسيوس، ومنذ الرسالة الثانية، سنة ٣٣٠، رُبط بالاحتفال الفصحيّ

---

(١٠٠) المرجع السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧. وذكر النصّ في تلك السنة عودة أنطونيوس أبي الرهبان إلى الإسكندريّة حيث أقام يومين فقط، شفى فيها عددًا من المرضى وعاد في اليوم الثالث، في شهر مهوري، أي نهاية تمّوز - آب.

(١٠١) راجع حاشية ٨٩، ص ٦٧-٧٣.

(١٠٢) S. Athanase, *Lettres festales et pastorales* en copte, L. Th. Lefort, Louvain, 1955, CSCO 150, (t 19 des scriptores coptici) pour l'édition et 151 (t 20) pour la traduction en français.

الصومُ الأربعينيّ الذي كان يمارَس حتّى ذلك الوقت، بعد الدنح، حسب التقليد المصريّ[١٠٣]. وهكذا دخل الصوم الأربعينيّ في دورة الفصح. نلاحظ أنّ تاريخ الفصح يُعطى أوّلًا حسب الكلندار اللاتينيّ أو اليوليانيّ[١٠٤] ثمّ حسب الكلندار القبطيّ. هذا يعني أنّ رسائل الإسكندريّة لم تتوجّه فقط إلى ما يرتبط بها من أبرشيّات وأديرة، بل إلى جميع الكنائس[١٠٥].

أ - مضمون الرسائل القبطيّة

بعد هذا الاستطراد السريع، نتحدّث عن هذه الرسائل التي ضاعت في اليونانيّة، وذلك لعدم الذوق عند الكتبة البيزنطيّين وكسلهم وإهمالهم[١٠٦]. ولكنّها وُجدت في القبطيّة ونُشرت منذ سنة ١٨٩٨ حتّى ١٩٣٥. جاءت المخطوطات من برلين وباريس وڤيينّا وأوكسفورد ولندن. فرتّبها النقّاد ترتيبًا وصل بهم إلى الرسائل الفصحيّة التالية[١٠٧]:

---

(١٠٣) تميّز صوم يومَي الأربعاء والجمعة، والصوم الأربعينيّ، عن أسبوع الصوم، الذي يهيّئ للاحتفال بعيد الفصح.

(١٠٤) إرتبط بيوليوس قيصر، سنة ٤٦ ق.م، وتحدّث عن سنة كبيسة تعود كلّ أربع سنوات. وهكذا صارت السنة ٣٦٥ يومًا وربع اليوم. راجع:
R. Coquin, *Les origines de l'Epiphanie en Egypte*, Lex Orandi, Paris, 1967, p. 139-170.
تحدّث لورنتز عن هذه العادة عند أوريجانس في العظات على سفر اللاويّين ١٠ : ٢ (الينابيع المسيحيّة، ٨٧)، ص ١٣٨-١٣٩ : تصوم صومًا احتفاليًّا يوم الأربعاء والجمعة من كلّ أسبوع). Lorentz, *op. cit*, p. 25.

(١٠٥) راجع رسالة العيد الثامنة عشرة (سنة ٣٤١): «كُتب الشيء عنه أيضًا إلى الرومان». وج:
A. Mai, *Nov. Patr. Bibl.*, VI, I, Rome, 1853, p. 132-133.
نقرأ في اللائحة (حاشية ١٣، ص ٢٤٦-٢٦٧): إنّ أثناسيوس «عاد من رومة ومن إيطاليا. ودخل إلى المدينة وإلى الكنيسة، فاستحقّ لقاء عجيبًا، على بعد ستة ميل».

(١٠٦) CSCO n° 150, p. III هذا ما قاله Bernard de Montfaucon في مقدّمة نشرة البندكتان لأعمال القدّيس أثناسيوس.

(١٠٧) المرجع السابق ص V-XVI. راجع حاشية ١٣، ص ٢٢٦-٢٢٨.

الأولى تعود إلى سنة ٣٢٩ وهي تبدأ: «يا أحبّائي، يدعونا الزمن لأن نعيّد. فقد أشرقت لنا شمس البرّ (ملا ٤ : ٢) فدلّتنا، بشعاعها النقيّ، على زمن هذا العيد»[١٠٨]، والثانية إلى سنة ٣٣٠، والسادسة إلى سنة ٣٣٤، والرابعة والعشرون إلى سنة ٣٥٢، والخامسة والعشرون إلى سنة ٣٥٣، ثمّ السادسة والعشرون (٣٥٤) والسابعة والعشرون (٣٥٥) والثامنة والعشرون (٣٥٦)، والتاسعة والعشرون (٣٥٧).

لم يصلنا شيء من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٣٦٣. في السنة ٣٦٤ وصلت الرسالة السادسة والثلاثون التي ضاعت بدايتها وفيها يقول أثناسيوس: «كتبتُ هذه إليكم من إنطاكية، بعد أن عُدتُ من البلاط الملكيّ وشاهدت الإمبراطور الرحيم»[١٠٩]. وتحدّثت الرسالة السابعة والثلاثون (سنة ٣٦٥) عن الأريوسيّين واتّباعهم الميليتيّين، فربطت شرّهم بتعجرف اليهود[١١٠]. واحتفظت لنا اللغة القبطيّة بالرسالة الثامنة والثلاثين سنة (٣٦٦)، والتاسعة والثلاثين (٣٦٧) التي سوف نعود إليها لما فيها من كلام عن لائحة الأسفار القانونيّة[١١١]. في الرسالة الأربعين (٣٦٨) يتحدّث عن خلافات

---

(١٠٨) تعود إلى الترجمة القرنطيّة. CSCO, 151, p. 1.

(١٠٩) المرجع السابق، ص ٢٧. حسب الكرونيكة اللامعنونة، عاد أثناسيوس فجأة إلى الإسكندريّة، حين أعلن موت الإمبراطور يوليانُس، ثمّ عاد إلى إنطاكية للقاء الإمبراطور الجديد. راجع حاشية ١٣، ص ٢٢٦-٢٦٧ (العيد في ٤ نيسان) حيث نقرأ: «أرسل كالعادة (إيك عيُنا، في السريانيّة) رسالة العيد (عادتنا) من إنطاكية، إلى جميع الأساقفة في كلّ الأبرشيّات» (أو المناطق، بحسب المعنى القديم للفظ éparchie أو في السريانيّة: هفاركيا).

(١١٠) CSCO 151, p. 40. غابت بداية الرسالة. ثمّ قال الأسقف القدّيس: «ما أوصيكم به هو أن تحبّوا بعضكم بعضًا...». في حاشية ١٣، ص ٢٦٨-٢٦٩، نقرأ ما يلي: «مرّة أخرى هاجموا البابا (= أثناسيوس) بالافتراءات، فلجأ إلى حديقة النهر الجديد (تلميح إلى المنفى الخامس، راجع التاريخ اللامعنون ٥ : ١-٤، ص ١٥٩-١٦٣). ولكن بعد بضعة أيّام جاء الكاتب (= السكرتير) برسيداس مع الحاكم، وجعله يدخل إلى الكنيسة». وتذكر هذه الرسالة زلزالاً تحدّث عنه إيرونيمُس في *Chron.* ad a. 365 واستعاده Orose, *Adv. Paganos*, VII, 32, 5 (365).

(١١١) الحاشية ١٣، ص ٢٧٠-٢٧١ (وقع العيد في ١ نيسان ٣٦٧). نقرأ: «وفيها»

تجعل الأساقفة يرسمون قسًا. يقول أثناسيوس: «إن لم نتوقّف عن مثل هذه الأعمال، نكون وكأنّنا نأكل بعضنا بعضًا، ونفني بعضنا بعضًا»[١١٢].

بعد الرسالة الحادية والأربعين (٣٦٩) التي ارتبطت بالسنة الخامسة والثمانين لعهد ديوقليطيانُس[١١٣]، والرسالة الثانية والأربعين (كان العيد في ٢٨ آذار ٣٧٠)، انتهى النصّ القبطيّ مع الرسالة الثالثة والأربعين التي تحدّثت عن عيد وقع في ١٧ نيسان سنة ٣٧١. وانطلقت من رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيّين. فنقلتنا من العهد القديم إلى العهد الجديد: الفصح فصحنا، ودعوتنا في الصلاة، ومدينتنا في السماوات[١١٤].

بعد أن ذكرنا هذه الرسائل، هل نستطيع القول إنّه وجدت مجموعة تضمّ رسائل أثناسيوس الفصحيّة، حسب الترتيب الكرونولوجيّ؟ لا شكّ في ذلك. فالقدّيس إيرونيمُس الذي توفّي سنة ٤١٩-٤٢٠، يورد بعض أعمال أثناسيوس في «الرجال العظام»[١١٥] ويذكر «الرسائل العيديّة»[١١٦]. وعاد تيموتاوس إيلورس[١١٧] إلى الرسائل فاستقى منها ما استقى. واستعمل ساويرس الإنطاكيّ[١١٨] (+ ٥٣٨) مجموعة رسائل،

=(= تلك السنة) كتب (رسالة) فصح (= حدّد) القانون (قنونا في السريانيّة) حول الكتب الإلهيّة».

(١١٢) CSCO, 151, p. 40. في تلك السنة، وقع العيد في ٢٠ نيسان.

(١١٣) الحاشية ١٣، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(١١٤) CSCO, 151, p. 51.

(١١٥) Jerome, *De Viris illustribus*, 87

(١١٦) Heortastikai epistolai.

(١١٧) Timothée Aelure (+ 477) عُرف برذّه على مجمع خلقيدونية، Quasten, *op. cit.*, p. 157. نجد في مؤلّفاته ثماني رسائل لأثناسيوس، حُفظت في مؤلّف أرمنيّ نشره: K. Ter-Mekerttchian et E. Ter-Minassiantz, *Timotheus Aelurus des Patriarches von Alexandrien, widerlegung der auf der Synode zu Chalceden festgesetzen Lehre*, Leipzig, 1908; voir L. Th. Lefort, «A propos des Festales de St Athanase», dans *Le Muséon* LXVII, 1954, p. 43-50.

(١١٨) J. Lebon, *Severi antiocheni liber contra impium Grammaticum* (CSCO vol 101/syr 5; vol 102/syr 51).

نجد الاستشهادات الثلاثة ص ٢٩٣-٢٩٥ من النصّ السريانيّ، وص ٢١١-٢١٧=

فدلّ بدقّة على بداية الرسالة وعلى رقمها في السلسلة، وأشار كوسماس أنديكوبلوستيس[١١٩]، في منتصف القرن السادس في إيراد نصوص رسائل العيد هذه، إلى رقم الرسالة.

هل عاد ساويرس إلى المجموعة السريانيّة، أم نقل ما ورد عن النصّ اليونانيّ؟ هذا ما لا نقدر أن نقوله. ولكن في أيّ حال، وُجد النقل السريانيّ الذي نشره كيورتون[١٢٠] عن المتحف البريطانيّ، رقم ١٤٥٦٩، قبل القرن الثامن. ولا شيء يمنع من أن نكون أمام نسخة لنصّ نُقل قبل ذلك الوقت. وإذا كان السريان اهتمّوا باكرًا بهذه «الرسائل»، فكم يكون اهتمام الأقباط كبيرًا، لا سيّما وأنّ هذه الرسائل كُتبت لأجلهم فتسلّمتها كنائس مصر وأديرتها، وتلتها تلاوة علنيّة أمام المؤمنين لتعلن لهم بداية الصوم وزمن عيد الفصح. وبما أنّ مجمل شعب مصر لم يكن يفهم اليونانيّة[١٢١] وجب ربّما على أثناسيوس أن ينقل رسائله الفصحيّة إلى القبطيّة[١٢٢].

بعد هذه الإطلالة على رسائل أثناسيوس كما وصلت في اللغة القبطيّة، نقدّم رسالتين هامّتين. الأولى تورد قانون (أو اللائحة القانونيّة) الأسفار المقدّسة. والثانية تقدّم شرحًا عن عيد الفصح في إطار الكتاب المقدّس.

=من الترجمة اللاتينيّة. ونجدها أيضًا في اللاتينيّة، الآباء اليونان ٢٦: ١٤٣٣-١٤٣٤؛ ١٤٣٥-١٤٣٦؛ ١٤٤١-١٤٤٢.

(١١٩) Cosmas Indicopleustes, *Topographie chrétienne*, SC 141, 159, 197, Paris.

(١٢٠) حاشية ٤٠. تضيف هنا H. Burgess, *The Festal Epistles of St Athanasius*, Oxford, 1854.

(١٢١) ذاك كان وضع مكاريوس، أسقف أنتابوليس في النصف الأوّل من القرن الخامس: لم يكن يفهم اليونانيّة L. Th. Lefort, «*A propos de Macaire de Tkow*», *Le Muséon* LXV, 1952, p. 5.

(١٢٢) هذا ما فعله تاودورُس، خلف باخوميوس الذي نشر لرهبانه رسالة سنة ٣٦٧. «أمر الأخوة أن يترجموا رسالة الأسقف أبا أثناسيوس. فكتبوها في لغة مصريّة. فجعلها تاودورُس في الدير لكي تكون قانونهم».
L. Th. Lefort, *Les vies coptes de S. Pachôme*, Louvain, 1943, p. 295, 189.

ب - الرسالتان ٤١، ٤٥

أوّلًا: الرسالة التاسعة والثلاثون[١٢٣]

في تلك السنة، كان العيد في الأوّل من نيسان سنة ٣٦٧. يوم كان لوفيفيتُس ويوبيُس قنصلين وفروقليانُس حاكمًا في مصر... حين كان أثناسيوس في رومة، طلب منه الإمبراطور قونسطاس أن يتقدّم لائحة بالأسفار المقدّسة، بسبب تكاثر الكتب المنحولة التي تنشرها الميليتيّون في كلّ مكان.

«أمّا الآن، فنحتفل أيضًا بالعيد حسب تقاليد آبائنا. نحن نمتلك الكتب المقدّسة التي تكفينا وتعلّمنا العلم الكامل. فإن قرأناها بتمعّن ونيّة صادقة، نكون مثل «هذه الشجرة التي تنمي على مجرى المياه، وتعطي ثمارها في وقته، ولا تذبل أوراقها» (مز ١: ٣).

«ولكن بما أنّ الهراطقة بلداء، وبما أنّنا نحن نمتلك الكتب التي هي نعمة الله من أجل خلاصنا، أضاف، بسبب شرّ البشر، أخاف أن يضلّ البسطاء عن البراءة والخلوص الذي يقود إلى المسيح (٢ كور ٣: ١١)، كما كتب بولس إلى الكورنثيّين، ويشرعون في قراءة الكتب المنحولة، فيضلّون بالتسمية فيعتبرون هذه (= المنحولة) أسفارًا حقيقيّة. فأناشدكم أن تمتنعوا عنها. وانظروا إن كانت الكتب التي تعرفونها هي التي أُوردُها من أجل حاجة الكنيسة وحيًّا لها.

«وإذ عزمتُ أن أذكرها، أعود إلى عبارة الإنجيليّ لوقا، فأتجرّأ، تحت حمايته، وأقول أنا أيضًا: «بما إنّ البعض أخذوا يكتبون لأنفسهم كتبًا منحولة ومزجوها بكتب هي نفحة الله، ونؤمن أنّها سُلّمت إلى آبائنا على يد الذين كانوا منذ البدء شهود عيان وصاروا خدّام الكلمة، استحسنتُ أنا أيضًا العالم بهذا منذ البدء بأن أعلّمكم، بناء على دعوة إخوة حكماء، بكتب قانونيّة نُقلت إلينا وآمنّا بأصلها الإلهيّ. فمَن ضلّ يردّ على الذي أضلّه.

(١٢٣) رسالة شبه كاملة، بعد عودة إلى أجزاء يونانيّة وسريانيّة وقبطيّة.
P. Joannou, *Discipline générale antique*, Rome, 1962, p. 71-76.

والذي ظلّ معافى يبتهج حين تُذكر أمامه الأسفارُ القانونيّة.

«كتب العهد القديم اثنان وعشرون[١٢٤]. نُقلت إلينا كما كانت عند العبرانيّين وإليك ترتيب قراءتها وأسمائها: الأوّل التكوين. وبعده، الخروج[١٢٥]... وكتب العهد الجديد التي لا نغفلها. الأناجيل الأربعة حسب متّى، حسب مرقس، حسب لوقا، حسب يوحنّا. ثمّ أعمال الرسل والرسائل الكاثوليكيّة السبع... تلك هي ينابيع الخلاص فمَن عطش ينعم بالكلمات التي فيها، لأنّها تكرز بتعليم التقوى الذي فيها. فلا يُضِف عليها أحد ولا ينقّص. ففي شأنها وجّه الربّ توبيخه إلى الصدّوقيّين قائلًا: «ضللتم وما عرفتم الكتب ولا قدرة الله» (مت ٢٢: ٢٩). ونبّه اليهود أيضًا قائلًا: «إبحثوا في الكتب لأنّها تشهد لي» (يو ٥: ٣٩)[١٢٦].

ثانيًا: الرسالة الثانية والأربعون

«لم يحضّ الرسول الكورنثيّين وحدهم على الاحتفال بالعيد قائلًا: «لا نعيّد بالخمر العتيق» (١ كور ٥: ٨)، فهذه الكرازة هي لفائدتنا العامّة وفائدة جميع القدّيسين. هذه الكرازة أعلنها موسى: «هذا الشهر هو لكم بداية الشهور. هو الشهر الأوّل في السنة» (خر ١٢: ٢). والنبيّ أوصى أيضًا كيف يجب أن نعيّد، قال: «يا يهوذا، احتفل بأعيادك وأوفِ نذورك» (نا ١: ١٥). فإذا وجب علينا في كلّ وقت، كما يقول القدّيسون (هكذا أنشد لاسمك؟ يا إلهي، إلى دهر الدهور، وأوفي نذوري، يومًا بعد يوم، مز ٦١: ٩)، فبالأحرى يجب علينا خلال الأعياد أن نعرض لله طلباتنا

---

(١٢٤) أي حسب عدد الأحرف الأبجديّة في العبريّة كما في السريانيّة. في الواقع، هي ٣٩ كتابًا كما في التوراة العبريّة.

(١٢٥) وتتواصل اللائحة حتّى حزقيال ودانيال. لم نورد النصّ، كما لن نورد نصّ أسفار العهد الجديد.

(١٢٦) CSCO 151, p. 36-37. ويتابع النصّ فيذكر الأسفار القانونيّة الثانية (سفر الحكمة...) التي ينصح الآباء بقراءتها. نشير إلى أنّ هذا «القانون» الذي أورده أثناسيوس نقرأه في الكودكس الڤاتيكانيّ الذي يعود إلى القرن الرابع فيرتبط بأثناسيوس والتقليد المصريّ.

وتدفع ديوننا بسخاء. فحين نسمع «انذروا وأوفوا للربّ إلهكم» (مز ٧٦: ١٢)، نجيب حالًا مع الذين قالوا في المزامير: «أدخلُ بيتك بالمحرقات» (مز ٦٦: ١٣). فنفّذ هؤلاء بدون تردّد، لأنّهم هتفوا بعد أن دخلوا: «أذبح لك ذبيحة الحمد، وأوفي نذوري للربّ، في ديار بيت إلهنا، أمام شعبه كلّه، في وسطك يا أورشليم» (مز ١١٦: ١٧-١٨).

«تلك هي الطريقة التي بها نذر أبو الآباء يعقوب فقال: «إن كان الربّ الإله معي، وإن حفظني في الطريق الذي أسير فيه، وإن أعطاني خبزًا آكله ولباسًا ألبسه، إن أعادني سالمًا إلى بيت أبي، يكون الربّ لي إلهًا وهذا الحجر الذي رفعته ذكرًا يكون بيت الله، وأعطيك عشر كلّ الخيرات التي تعطيني» (تك ٢٨: ٢٠-٢٢)، وما تهامل. وحنّة أيضًا أعطت صموئيل ما نذرت به (١ صم ١: ١٢)[١٢٧].

خاتمة

تلك كانت مسيرتنا في رسائل العيد كما وصلت إلينا من أثناسيوس، بطريرك الإسكندريّة في القرن الرابع. توقّفنا عند لائحة تتحدّث عنه منذ سنة ارتقائه السدّة الأسقفيّة حتّى وفاته سنة ٣٧٣. وقرأنا الرسالة العاشرة التي ضاعت من كلّ النصوص سوى من السريانيّة. وانتهينا مع رسائل العيد كما حفظتها لنا اللغة القبطيّة. لا شكّ في أنّ الموضوع الأوّل هو عيد الفصح وتحديد تاريخه وكيفيّة الاحتفال به. ولكن من خلال هذه الرسائل الظرفيّة، نعرف الكثير عن أثناسيوس المدافع عن الأرثوذكسيّة، عن أحوال كنيسة مصر. كما نكتشف أسماء القناصل والحكّام الذين دبّروا أمور مصر وليبيا والنوبة في ذلك الزمان. ولن تتوقّف رسائل العيد مع أثناسيوس، بل تتعدّاه إلى تيوفيلُس، فتصل بشكل خاصّ إلى كيرلّس الذي احتفظ لنا التاريخ بتسع وعشرين رسالة قدّمت لنا هي أيضًا صورة عن كنيسة مصر في القرن الخامس، في خضمّ المجادلات الكرستولوجيّة.

---

(١٢٧) CSCO 151, p. 48-49.

إيليّا النَصِيبِينيّ (٩٧٥-١٠٤٦ م)
والوزير أبو القاسم المَغْرِبيّ (٩٨١-١٠٢٧)

الأب سمير خليل سمير اليسوعيّ*

أوّلًا - حياة إيليّا

١. نشأته

٢. سيامته مطرانًا

٣. نشاطه الفكريّ

٤. علاقته بالوزير أبي القاسم

٥. علاقاته بأبي الفرج بن الطيّب

٦. نهاية حياة إيليّا

ثانيًا - التعريف عن الوزير أبي القاسم المغربيّ

١. مراجع عن الوزير أبي القاسم

٢. حياة الوزير أبي القاسم

٣. مؤلّفات الوزير أبي القاسم وثقافته

٤. زيارات الوزير إلى نصيبين

(*) مدير مركز التراث العربيّ المسيحيّ للتوثيق والبحث والنشر. أستاذ في جامعات بيروت وروما.

ثالثًا - أبو القاسم الوزير يطلب دعاء الرهبان من أجله، وإيليّا المطران يردُّ عليه

١. أسلوب إيليّا في الحوار

٢. مثال من «كتاب المجالس»

آ - المقدّمة: طلب الوزير

ب - تنبيه إيليّا

ج - جواب الوزير

د - الخاتمة: تحقيق طلب الوزير

من ألمع شخصيّات الكنيسة المشرقيّة، في القرن الحادي عشر، إيليّا مطران نصيبين، المعروف بإيليّا بن السنّيّ (نقلًا عن السريانيّة «بر شنايا»)، وصوابها إيليّا السنّيّ[1].

كان إيليّا، مع صديقه الكاهن عبدالله بن الطيّب المشرقيّ، الطبيب والفيلسوف واللاهوتيّ والمفسّر العلّامة المتوفّى سنة ١٠٤٣ م، ممّن رفع عاليًا لواء المسيحيّة في أنحاء الشرق. ويعتبر إيليّا من أئمّة الفكر العربيّ في عصره، وإن لم يشتهر شهرة ابن الطيّب لاهتمامه بالأمور الدينيّة والعرفانيّة أكثر منه بالأمور العلميّة والفلسفيّة.

(١) إعتمدنا في هذا البحث على ما نشرناه في المنيا (مصر) بالسبعينيّات في ثلاث مقالات صغيرة. راجع الأب سمير خليل اليسوعيّ، «حياة إيليّا النصيبيّ (٩٧٥-١٠٤٦ م)»، في رسالة الكنيسة ٦ (١٩٧٤)، ص ١١-١٤ و١٧؛ و«إيليّا النصيبيّ (٩٧٥-١٠٤٦) والوزير أبو القاسم»، ص ٥١-٥٤ و٥٧؛ و«أبو القاسم الوزير يطلب دعاء الرهبان من أجله وإيليّا المطران يردّ عليه»، ص ٩١-٩٥. ولكنّا أصلحنا بعض الأخطاء وزدنا زيادات كثيرة.

أوّلًا - حياة إيليّا

١. نشأته

ولد إيليّا يوم الخميس ١١ فبراير / شباط سنة ٩٧٥ م، في السنّ، وهي قرية قريبة من الزاب الأصغر، تابعة لأبرشيّة تكريت. تبعد عن تلك المدينة نحو ٣٥ كم شمالًا. وعندما بلغ التاسعة عشرة، رسمه المطران نثنائيل كاهنًا، وعيّنه رئيسًا على دير مار سمعان. وكان ذلك يوم الأحد ١٥ سبتمبر / أيلول العامّ ٩٩٤ م.

وبعد ستين، أي في ٩٩٦، انتقل إيليّا إلى دير مار ميخائيل، بالقرب من الموصل. وتتلمذ على يد أحد الرهبان المثقّفين، يدعى يوحنّا الأعرج. فأكمل معه دراساته العلميّة والأدبيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة؛ وكانت الدروس الكهنوتيّة عند المشارقة تشمل: العلوم الرياضيّة، والطبّ، والمنطق، واللاهوت، والتفسير.

٢. سيامته مطرانًا

ولمّا توفّي البطريرك، اجتمع الرأي على اختيار المطران نثنائيل جاثوليقًا (أي بطريركًا) على الكنيسة المشرقيّة. فتمّ تنصيبه يوم الأحد ٢٦ أكتوبر / تشرين الأوّل سنة ١٠٠٠ م، وسمّي باسم يوحنّا الخامس بن عيسى.

ولم تعبر سنة وربع سنة، حتّى رسم البطريرك الجديد إيليّا مطرانًا على إيبرشيّة «بيت نهاذرة». وكان عندئذٍ ابن ٢٧ سنة. فتمّت الرسامة يوم الأحد ١٥ فبراير / شباط سنة ١٠٠٢ م.

ثمّ توفّي «يهبالاها»، مطران نصيبين، يوم الأربعاء ٣ ديسمبر / كانون الأوّل سنة ١٠٠٧ م. فخلا الكرسيّ الأسقفيّ سنة وثلاثة أسابيع، ولم يجد البطريرك مَن ينوب مكان «يهبلاها» من الرهبان ويكون كفئًا لهذا المنصب، نظرًا إلى أهمّيّة هذا الكرسيّ. وكانت نصيبين آنذاك من

أهمّ الإيبارشيّات المشرقيّة، ومركز إشعاع للفكر المسيحيّ. فدعى إيليّا، والتجأ إليه. واضطرّ إلى أن ينقله من «بيت نهاذرة» إلى نصيبين. ولم يعترض أحد على هذا الاختيار، لحسن سيرته وغزير علمه. وتمّ تنصيبه يوم الأحد ٢٦ ديسمبر / كانون الأوّل سنة ١٠٠٨ م.

٣. نشاطه الفكريّ

ولمّا وصل إيليّا نصيبين، وجد في المطرانيّة مكتبةً عامرةً، علميّة ودينيّة. فظلّ يتابع نشاطه الرعويّ والروحيّ، ولكنّه لم يهمل النشاط العلميّ. وسار على خطى الآباء الأوّلين، الذين كانوا رجال زهدٍ ورجال علمٍ في آنٍ واحدٍ.

فأخذ يؤلّف كتبًا في شتّى الميادين. وله مؤلّفات قيّمة في اللغة، والتاريخ، والمنطق، والعلوم والفلسفة. كما أنّ له مؤلّفات أدبيّة أخلاقيّة روحيّة ممتازة. وكتابه في **تاريخ العالم**، الذي وضعه سنة ١٠١٩ م باللغتين السريانيّة والعربيّة، كان من أفضل التواريخ المعروفة، حتّى أعجب به ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب **طبقات الأطبّاء**.

ولكنّه اعتنى اعتناءً خاصًّا بالدفاع عن الدين المسيحيّ دفاعًا هادئًا، بعيدًا عن روح المجادلات. فشرح عقائد النصرانيّة (الثالوث والتوحيد والتجسّد، وقانون الإيمان، والأمور الأخرى الفلسفيّة المرتبطة بالدين) لصديقه الوزير أبي القاسم الحسين بن عليّ المغربيّ، ومن خلاله لكبار المفكّرين الذين كانوا يفدون إلى مجلس الوزير.

وكان إذا هوجم، لا يهاجم، بل يدافع عن عقيدته بدون تعصّب أو مجادلةٍ كما فعل لمّا دافع عن العفّة المسيحيّة أجمل دفاع ردًّا على رأي الجاحظ. ويكاد لا يخلو كتاب من كتبه من الطابع الدفاعيّ. وإن كان أسلوبه هادئًا ليّنًا، إلّا أنّ أفكاره كانت دائمًا جريئة، بعيدة كلّ البعد عن الخوف أو التملّق.

٤. علاقته بالوزير أبي القاسم

وفي يوم الجمعة ٥ يوليو / تمّوز من سنة ١٠٢٦ م، تمّ أوّل لقاء له بالوزير الشهير والأديب أبي القاسم الحسين بن عليّ المغربيّ. فنشأت بين الرجلين صداقة استمرّت حتّى وفاة الوزير، يوم الأحد ١٥ أكتوبر / تشرين الأوّل ١٠٢٧ م (الموافق ١١ رمضان ٤١٨ هجريّة).

وكان كلّما حضر الوزير إلى نصيبين، يقضي أيّامًا مع المطران، يستشيره في أموره الشخصيّة، ويعرض عليه مشاكله النفسيّة.

وإذا عاد الوزير إلى ميّافارقين، تبادلا الرسائل الفكريّة، في أمور الدين والدنيا. وتلك المراسلة بين المطران والوزير من أجمل ما يمكن، إذ إنّها تعبّر ببساطةٍ ووضوحٍ عن مودّةٍ وصداقةٍ نادرتين.

ولا شكّ في أنّ تلك العلاقة قامت بدورًا هامّ في حياة إيليّا. فكان الوزير يطلب رأيه في مواضيع مختلفةٍ، ويحثّه على تأليف كتبٍ في تلك المواضيع. وكتاب دفع الهمّ، على سبيل المثال، ثمرة من تلك المراسلة. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت تلك الصداقة أقوى حافز على الكتابة بحرّيّةٍ وهدوءٍ. كما أنّ أسئلة الوزير العديدة في العقيدة المسيحيّة دفعت المطران إلى تأليف كتبٍ يعرض فيها عقيدته.

ويا ليت تلك اللقاءات تتمّ اليوم بين المفكّرين المسيحيّين وغيرهم، لكي يخرج كلّ طرفٍ من العزلة التي يعيش فيها، فيتعمّق في مفهوم إيمان صديقه. فالمجادلات لا تجدي، والردود لا تهدي. أمّا العلاقات الشخصيّة الوديّة، المقرونة بحسن النيّة، فهي نور على الطريق.

٥. علاقاته بأبي الفرج بن الطيّب

وكان إيليّا بن السنّيّ صديق أبي الفرج عبد الله بن الطيّب[٢]،

---

(٢) عن سيرة ابن الطيّب راجع الأب سمير خليل: «أبي الفرج بن الطيّب، دفاع عن العلم»، في: رسالة الكنيسة ٤ (١٩٧٢) ٢٥٥-٢٦٠ (١) [سيرته]؛ (٢) [نصّ=

المتوفّى ببغداد العامَ ١٠٤٣ م، ثلاث سنوات قبل إيليّا.

ولما كان أبو الفرج أمين سرّ البطريرك، كان من واجب كلّ مؤلِّف أن يرسل إليه نسخةً من مؤلَّفاته، ليوافق عليها باسم البطريرك. فهذا ما فعله إيليّا المطران، بتواضع، بعد أن حرّر نصّ المجالس التي جرت بينه وبين الوزير أبي القاسم. يقولُ إيليّا، في رسالةٍ إلى أخيه أبي العلاء صاعدِ بن سهلٍ:

«وَبَعْدَ إِتْمامِي هذِهِ الرِّسالَةَ، أَيُّها الأَخُ الْحَبِيبُ الْجَلِيلُ (أَدَامَ اللهُ حِرَاسَتَكَ!)، رَأَيْتُ إِنْفاذَهَا (قَبْلَ وُقُوفِكَ وَغَيْرِكَ عَلَيْهَا) إِلَى الشَّيْخِ الْجَلِيلِ الْقِسِّيسِ الْمَلْفانِ الْفَيلَسُوفِ، أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الطَّيِّبِ، كَاتِبِ قِلَّايَةِ الْجَثْلَقَةِ (أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ!)، وَمَسْأَلَتَهُ تَأَمُّلَهَا وَذِكْرَ مَا عِنْدَهُ فِيهَا»[٣].

ولمّا تسلّم أبو الفرج نصّ المجالس السبعة، تأمّل موضوعها، ووقّع عليها بخطّ يده قائلًا: «قرأتها، ودعوت لبقاء قدس أبينا المعظّم (صلواته على العالم!). وهي على الحسن والصحّة والموافقة للكتب البيعيّة. ولا يمكن من يحبّ الحقّ أن يدفع لفظةً منها»[٤]. ثمّ أثنى على المطران إيليّا بثناءً يفوق الحدود، بل فيه شيء من المبالغة.

٦. نهاية حياة إيليّا

وقد تابع إيليّا نشاطه العلميّ والثقافيّ، إلى جانب خدمته الرسوليّة، طوال عشرين سنةٍ. فإنّه ألّف، في تلك المدّة، أكثر من عشرة مؤلَّفاتٍ، باللغة العربيّة، إضافةً إلى ما وضعه باللغة السريانيّة.

وفي يوم الجمعة ١٨ يوليو / تمّوز سنة ١٠٤٦ م، توفّي إيليّا السنّيّ، في الثانية والسبعين من عمره، بعد أن دافع عن إيمانه أحسن دفاع.

=ابن أبي أصيبعة]، ٣٠٥-٣١٠؛ (٣) [مؤلَّفاته الطبيّة]، ٣٦٨-٣٧٣.

(٣) نقلًا عن ثلاث مخطوطات (من دون الإشارة إلى القراءات): مخطوطة بيروت، المكتبة الشرقيّة رقم ٥٦٤، ص ٨٤؛ مخطوطة بيروت، المكتبة الشرقيّة رقم ٦٧٦، ص ٦٨؛ مخطوطة حلب، مكتبة الأب بولس سباط رقم ١١٣٠، ص ٣٦؛ مخطوطة فاتيكان عربيّ ١٤٣، ورقة ١٢٢ ب.

(٤) المرجع نفسه.

ثانيًا – التعريف عن الوزير أبي القاسم المغربيّ

وإذ ذكرت العلاقة الوطيدة التي ربطت إيليّا بالوزير، وجب أن أذكر، بشيء من التفصيل، خبر ذلك الوزير، وخبر زياراته المكرّرة إلى المطران إيليّا. فكان «من مشاهير زمانه، وقد خصّه ابن خلّكان في كتابه وفيات الأعيان[٥] بترجمة واسعة، ويُرقي هناك نسبَه إلى ملوك العجم الساسانيّة»[٦].

١. مراجع عن الوزير أبي القاسم

إليك قائمة بأهمّ المصادر والمراجع عن الوزير أبي القاسم:

- K. V. ZETTERSTEEN, art. «al-Maghribi», in: *EI* III (Leyde 1936), p. 114 (Français) ou p. 117 (allemand)
- كارل بروكلمن، تاريخ الأدب العربيّ (باللغة الألمانيّة)، ج ١ (الطبعة الأولى)، ص ٣٥٣-٣٥٤. وملحق تاريخ الأدب العربيّ، ج ١، الطبعة الأولى، ص ٦٠٠-٦٠١؛

  Carl BROCKELMANN, *Geschichte der arabischen Litteratur* (Leyde: Brille, 1912) et *Supplementband* I 1943).
- إعتاب الكتّاب، ص ٢٠٦ (وفيه أنّ أوّل هروبه، كان من مصر إلى مكّة).
- فحول البلاغة، ص ١٨٩.
- إبن العماد، شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢١٠ (كحّالة).
- المامقانيّ، تنقيح المقال، ج ١، ص ٣٣٨ (كحّالة).
- محسن أمين العامليّ، أعيان الشيعة ج ٢٧، (دمشق، من سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٥) ص ٦ و٢٧.

---

(٥) راجع ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، رقم ١٨٥، ج ١ (القاهرة، ١٣١٠ هـ)، ص ١٥٥-١٥٦.

(٦) الأب لويس شيخو، في المشرق ٢٠ (١٩٢٢) ص ٤٣٤.

- البغداديّ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، ج ١، (استنبول، ١٣٦٤/ ١٩٤٥)، ص ٤٩، ١١٧؛ ج ٢ (استنبول، ١٣٦٦/ ١٩٤٧)، ص ٣٠٤، ٣١٥، ٤٣٠، ٥٦٧.
- الثعالبيّ، تتمّة اليتيمة، ج ١، ص ٢٤-٢٥.
- الخوانساريّ: روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات، أربعة أجزاء في مجلّد واحد، الطبعة الثانية على الحجر ١٣٠٧ هـ، ص ٢٤١.
- إبن حجر العسقلانيّ، لسان الميزان، (حيدر آباد، ١٣٣١ هـ)، ج ٢، ص ٣٠١.
- إبن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، رقم ١٨٥، ج ١ (القاهرة، ١٣١٠ هـ)، ص ١٥٥-١٥٦؛ وطبعة أخرى، ص ١٩٥-١٩٧.
- حاجّي خليفة، كشف الظنون، (استنبول، ١٩٤١)، ص ١٠٨، ١٢٩، ٢١٦، ٨١٤، ١٤٤١، ١٥٧٣.
- سامي الدهّان، كتاب السياسة للوزير المغربيّ، (دمشق: منشورات المعهد الفرنسيّ، ١٩٤٨).
- فؤاد سيّد، فهرس المخطوطات المصوّرة بجامعة الدول العربيّة، ج ١، (القاهرة، ١٩٥٦-١٩٥٧)، ص ٣٧١.
- فؤاد سيّد، فهرس المخطوطات المصوّرة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربيّة، ج ١، (القاهرة، ١٩٥٤)، ص ٤٢١.
- لطفي عبد البديع، فهرس المخطوطات المصوّرة بجامعة الدول العربيّة، ج ٢، (القاهرة)، ص ٤٠.
- لويس شيخو، «مجالس إيليّا مطران نصيبين»، في: المشرق ٢٠ (١٩٢٢) ص ٤٢٥-٤٣٤، هنا ص ٤٣٤.
- المقريزيّ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (القاهرة، ١٣٢٧ هـ).
- النجّاشيّ (أحمد بن عليّ)، الرجال، (بمبي، ١٣١٧ هـ)، ص ٥١.
- اليافعيّ، مرآة الجنان، ج ٣، (حيدر آباد، ١٣٣٧-١٣٣٩ هـ)، ص ٣٢، ٣٣.

- ياقوت الحمويّ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بـ معجم الأدباء، سبعة أجزاء، طبعة مرجليوث MARGOLIOUTH، (القاهرة، ١٩٠٧-١٩٢٥)، ج ٤، ص ٦٠-٦٤.
- لويس شيخو، في المشرق ٢٠ (١٩٢٢)، ص ٣٤٣.

٢. حياة الوزير أبي القاسم

ولد أبو القاسم الحسين، المعروف بابن عليّ المغربيّ، في القاهرة، يوم الأحد ١٩ يونيو / حزيران سنة ٩٨١ م، فهو أصغر من إيليّا بستّ سنوات.

وكانت أسرته قد خدمت الدولة الفاطميّة سنين عديدة. ثمّ غضب عليهم الحاكم بأمر الله، فقتل أباه وعمّه وأخوَيْه، يوم ١٩ يوليو / تمّوز سنة ١٠١٠ م (٤٠٠ هـ)، ولم ينج من تلك المذبحة إلّا أبو القاسم.

فهرب أبو القاسم إلى الرملة، ثمّ إلى الحجاز. وأثار أصحابها على الحاكم بأمر الله، حتّى خاف الحاكم على ملكه. ثمّ قصد العراق هاربًا من الحاكم، والتجأ إلى الوزير «فخر الملك أبي غالب». وتولّى في العراق، ولا سيّما في الموصل، عدّة أعمال. وقلّده الملك «مشرف الدولة» البويهيّ الوزارة ببغداد.

وأخيرًا، قصد «نصر الدولة أحمد بن مروان» الكرديّ، صاحب ديار بكر وميّافارقين. وكان هذا الأمير أشهر أمراء بني مروان، ملك خمسين سنة، فكانت دولته في ازدهار وسلام. وجمع في عاصمته (ميّافارقين) العلماء والأدباء والزهّاد، كما أنّه أوى لاجئين عديدين. وتوفّي سنة ١٠٦١ م[٧].

فوزّره «نصر الدولة» عندما أتى إليه لاجئًا. ثمّ مرض أبو القاسم سنة

---

(٧) بشأن الأمير نصر الدولة، راجع:
أ - مقالة هنري باون (Bowen)، في دائرة المعارف الإسلاميّة (الطبعة الأولى)، تحت كلمة «نصر الدولة» في الجزء الثالث (الطبعة الفرنسيّة، ص ٩٣٥-٩٣٦)=

١٠٢٧ م. وتوفّي يوم الأحد ١٥ أكتوبر / تشرين الأوّل سنة ١٠٢٧ م. فنقلت جثّته إلى الكوفة برصيّة منه، ودفن في تربة مجاورة لمشهد الإمام عليّ، إذ كان من كبار أهل الشيعة.

٣. مؤلّفات الوزير أبي القاسم وثقافته

وكان أبو القاسم أديبًا شاعرًا، له ديوان شعر. ومن تآليفه الكتب الآتية:

- سيرة النبيّ، اعتمد في تأليفها على سيرة ابن هشام؛
- كتاب **الإيناس بعلم الأنساب** (ذكره ابن خلّكان قال: «وهو، مع صغر حجمه، كثير الفائدة ويدلّ على كثرة اطّلاعه»)؛
- كتاب **في السياسة** (ذكره إيليّا النصيبيّ)؛
- **أدب الخواصّ في المختار من بلاغة قبائل العرب وأخبارها وأنسابها وأيّامها**؛
- ديوان شعر (وهو الذي وجّه إليه أبو العلاء المعرّي «رسالة المنيح»)
- إختيار شعر أبي تمّام.
- إختيار شعر البحتريّ.
- إختيار شعر المتنبّي والطعن عليه.
- كتاب **المنخل**، وهو مختصر إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن السكّيت[٨]؛
- كتاب **المأثور في ملح الخدور**؛
- كتاب **الفهرست** لابن النديم (وهو من أشهر فهارس الكتب)، نشره ولم يؤلّفه.

= الطبعة الألمانيّة ص ٩٤٥-٩٤٦).

ب - مقالة ك. ف. زتّرشين (Zettersteen) في دائرة المعارف الإسلاميّة (الطبعة الفرنسيّة الأولى، ص ٣٥٦-٣٥٧)، تحت كلمة «Marwanides».

(٨) إبن السكيت (يعقوب أبو يوسف) (٨٠٣- نحو ٨٥٩): إمام في اللغة والأدب. ولد في بغداد. كان يعلّم صبيان العامّة. درس على أبيه وعلى أئمّة اللغة وعلى الأعراب في البادية. عيّنه الخليفة المتوكّل مؤدّبًا لابنه المعتزّ ثمّ أماته ضربًا. له إصلاح المنطق، الألفاظ، القلب والإبدال، الأضداد (منجد الأعلام ٢٠٠٢، ص ٩).

هذا كلّه يدلّ على ثقافة الوزير، واهتمامه بالتراث العربيّ القديم رغم انشغاله بأمور السياسة. ولذلك نراه يستشير المطران إيليّا في أمورٍ مختلفة، إذ كان واسع الآفق، مطّلعًا على الديانات جميعها، ميّالًا إلى كلّ الأفكار المتداولة في أيّامه. فكان من فئة «الإنسانيّين» (Humanistes) كما نقول اليوم، أولئك الأدباء العلماء المنفتحين على كلّ ما يخصّ «الإنسان» ومسائله ومشاكله. لذلك أحبّ مراسلة المطران إيليّا.

٤. زيارات الوزير إلى نصيبين

وفي العام ١٠٢٧، وهو الأخير من حياة أبي القاسم، جاء الوزير إلى نصيبين ثلاث مرّات. واجتمع كلّ مرّة مع إيليّا المطران:

١. وكانت أوّل زياراته له إلى نصيبين يوم ٥ يوليو / تمّوز ١٠٢٦ م، ومكث فيها حتّى أوّل أغسطس / آب. وفي هذه المدّة اجتمع سبع مرّات بإيليّا، وتناقشا في مواضيع شتّى. ثمّ وضع إيليّا محضر تلك المناقشات في كتابه الشهير المسمّى **كتاب المجالس**[٩].

أمّا موضوع المناقشات، فهو غالبًا دينيّ. ويدور حول التثليث والتوحيد، وتجسّد الكلمة، وصحّة الديانة المسيحيّة، ورأى القرآن في المسيحيّة، وتوضيح إيمان النصارى، وغيرها من الأمور الدينيّة. وهناك مواضيع أخرى مهمّة، كالموازنة بين اللغة العربيّة واللغة السريانيّة[١٠]، ورأي النصارى في الفلسفة وعلم الكلام والنفس، ورأيهم في أحكام

---

(٩) نشره الأب لويس شيخو تحت عنوان: «مجالس إيليّا مطران نصيبين» تباعًا في مجلّة المشرق ٢٠ (١٩٢٢)، ص ٣٣-٤٤ و١١٢-١٢٢ و٢٦٧-٢٧٢ و٣٦٦-٣٧٧ و٤٢٥-٤٣٤.

(١٠) حقّقت هذه الموازنة، وهو المجلس السادس ونشرتها مع ترجمة فرنسيّة وتعاليق في مقالَين من مجلّة *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*. راجع:

a) Samir Khalil SAMIR, «Deux cultures qui s'affrontent: une controverse sur l'*i'rāb* au XI^e^ siècle entre Élie de Nisibe et le vizir Abū l-Qāsim», in: *MUSJ* 49 (1975-1976), p. 619-649;

التجوم، وفي اعتقاد المسلمين، وما إلى ذلك. وهذه المجالس تعطينا فكرةً واضحةً عن اهتمامات الوزير وتطلّعاته الثقافيّة والدينيّة.

٢. ثمّ عاد الوزير أبو القاسم إلى نصيبين مرّةً ثانية، يوم الخميس ٣١ ديسمبر / كانون الأوّل سنة ١٠٢٦ م. وكان آنذاك بصحبة الأمير نصر الدولة. فمكثا في نصيبين ٢٥ يومًا حتّى تاريخ ١٤ يناير/ كانون الثاني سنة ١٠٢٧ م.

وجرت أيضًا بين الوزير والمطران «مذكّرات ومسائل عدّة: في اعتقاد اليهود، وتاريخ آدم، وغيره من التواريخ القديمة، وتغيير اليهود لها، وفي الآثار العلويّة، وغير ذلك ممّا يطول شرحه»[١١].

٣. وعاد مرّةً ثالثةً إلى نصيبين، يوم الأحد ٢٥ يونيو / حزيران سنة ١٠٢٧ م، ومكث فيها عشرة أيّام فقط. وكان يحسّ بوجع في أحشائه. وإذ كان الشيخ أبو سعد (أخو المطران إيليّا) طبيب الوزير، شكا الوزير إلى المطران إهمال أخيه أبي سعد.

فاستفسر المطران أخاه عن سبب إهماله، فأجابه الشيخ أبو سعد أنّ مرض الوزير لا علاج له ولا شفاء فيه. وبالفعل، عاد الوزير أبو القاسم في شهر يوليو / تمّوز إلى ميّافارقين، حيث توفّي يوم الأحد ١٥ أكتوبر / تشرين الأوّل سنة ١٠٢٧ م.

ولقد ذكرت أهمّيّة تلك اللقاءات التي جرت بين الوزير والمطران، إذ لم يكن لها ردّ فعل على الطرفين المعنيّين وحسب، بل على أصدقائهما أيضًا.

كما أنّ تلك اللقاءات والمراسلة التي استمرّت بين لقاء ولقاء، كان لها دور كبير في حياة إيليّا بن الـنّيّ، فعلّمته متى يجب المناقشة، ومتى يستحسن الصمت؛ وإذا تكلّم، كيف يجب أن يتحدّث. وأعطته تلك الميزة النادرة عند كلّ مَن يمارس الحوار، ألا وهي الاستماع إلى الطرف

---

b) IDEM, «Langue arabe, logique et théologie chez Élie de Nisibe», in: *MUSJ* 52 (1991-1992), p. 227-367.

(١١) راجع المجلس السابع، طبعة الأب لويس شيخو، في المشرق ٢٠ (١٩٢٢) ص ٤٣١.

الآخر، لا للردّ عليه، بل لفهم آرائه وإبداء رأيه بهدوء ولطف. وسنرى مثالًا لذلك في المقطع اللاحق.

ثالثًا - أبو القاسم الوزير يطلب دعاء الرهبان من أجله، وإيليّا المطران يردّ عليه

١. أسلوب إيليّا في الحوار

عندما ذكرنا معالم حياة إيليّا بن السنّيّ مطران نصيبين قلنا إنّه «اعتنى اعتناءً خاصًّا بالدفاع عن الدين المسيحيّ دفاعًا هادئًا، بعيدًا عن روح المجادلات»؛ وأضفنا في ما بعد: «وإن كان أسلوبه هادئًا ليّنًا، إلّا أنّ أفكاره كانت دائمًا جريئةً، بعيدة كلّ البعد عن الخوف أو التملّق»[١٢].

وها نحن نذكر نصًّا صغيرًا يوضح تلك الفكرة. وهو نصّ مناقشة جرت بين إيليّا والوزير أبي القاسم، يوم الخميس ٢٩ يوليو / تمّوز سنة ١٠٢٦ م، وموضوعها «الدعاء من أجل احتياجات الناس».

أمّا سبب ذلك الطلب، فهو أنّ أبا القاسم كان قد طلب من المطران، قبل ان ينطلق من عنده ليعود إلى ميّافارقين، أن يكلّف الرهبان بالدعاء من أجله. وهذا طلب بسيط، فضلًا عن أنّه طلب روحيّ، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بصميم رسالة الرهبان. فكان من المفروض أن يلبّي المطران دعوة الوزير فورًا، بل أن يشكر له شعوره الطيّب ولجوءه إلى الرهبان للتقرّب من الله.

ولكنّ المطران لم يستجب إلى سؤله، إلّا بعد أن أوضح له معنى هذا الدعاء، وأوصله إلى صلاح النيّة في ما يطلبه. وعندما توصّل الوزير إلى تلك الحالة الروحيّة الباطنيّة، حيث لا يرغب في شيء ماديّ، ولا يفضّل أمرًا على غيره من الأمور، بل يرغب في تتميم إرادة الله عليه، عندئذٍ، رضي المطران أن يكلّف الرهبان الدعاء من أجل الوزير.

---

(١٢) راجع أعلاه: أوّلًا، المقطع الثالث.

وهذا مثال لطيف يوضح طريقة المطران إيليّا في تعامله مع الوزير أبي القاسم، ومع كلّ مَن عاشره. فهو يسلك طريقًا صعبةً، إذ هي الطريق الوسطى: لا يغلق الباب في وجه مَن قرعه، بأن يهاجمه أو يعاديه، ولا يعمل كأنّ لا باب للدخول، بأن يحاول أن يكتم عقائده ومفاهيمه. بل يوضّح إيليّا الأمور تمام الإيضاح، بلطفٍ وهدوء، حتّى يجعل مخاطبه يتفهّم قصده، ويراجع نفسه فيتعمّق في حياته. وهذه هي روح الحوار الحقيقيّة.

أرشدنا الله إلى الامتثال بهذا المطران العالم القدّيس...

٢. مثال من «كتاب المجالس»

إنّ النصّ الذي نقدّمه مقتبس من المجلس السابع من كتاب المجالس. وكان قد نشره الأب لويس شيخو اليسوعيّ في مجلّة المشرق البيروتيّة، سنة ١٩٢٢. ولكنّنا آثرنا أن نحقّق النصّ بنفسنا، على المخطوطين المحفوظين في «المكتبة الشرقيّة» للآباء اليسوعيّين في بيروت. وقسّمناه بحسب عادتنا إلى أجزاء صغيرة.

وها هي الرموز المستعملة في الحواشي:

- أ = مخطوط بيروت رقم ٥٦٤، ص ٨٠-٨١
- ب = مخطوط بيروت رقم ٦٧٦، ص ٦٢-٦٤
- ش = طبعة شيخو في المشرق ٢٠ (١٩٢٢)، ص ٤٣٠-٤٣١

آ - الْمُقَدِّمَةُ: طَلَبُ الْوَزِيرِ

1 ثُمَّ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُكَلِّفَ[١٣] الرُّهْبَانَ الْفُضَلَاءَ، فِي الْأَعْمَارِ[١٤] الَّتِي تَحْتَ يَدِكَ وَبِالْقُرْبِ مِنْكَ، أَنْ يَدْعُوا[١٥] لِي، وَيَسْأَلُوا[١٦] اللهَ مُسَاعَدَتِي عَلَى أُمُورِي.

---

(١٣) ب : أكلف
(١٤) ش : + والأديرة
(١٥) أ ب : يدعوه
(١٦) أ ب : ويسألون

ب – تَنْبِيهُ إِيلِيَّا

2 قُلْتُ: إِنَّ الرُّهْبَانَ لَيْسَ يَدْعُونَ لِلإِنْسَانِ بِأَنْ يُطِيلَ اللهُ عُمْرَهُ، وَلَا أَنْ يَزِيدَ مَالَهُ، [17]وَلَا أَنْ يُوَقِّرَ جَاهَهُ[17]، وَلَا أَنْ يُكْثِرَ نَسْلَهُ.

3 وَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَصْنَعَ بِهِ مَا لَهُ فِيهِ الْخَيْرَةُ، وَقَعَ ذَلِكَ بِمُوافَقَتِهِ أَمْ لَمْ يَقَعْ، وَأَنْ يُصْلِحَ نِيَّتَهُ، وَيُوَفِّقَهُ لِطَاعَتِهِ[18]. فَإِنَّ بِصَلَاحِ[19] النِّيَّةِ وَالتَّوْفِيقِ، يَكُونُ صَلَاحُ الشَّأْنِ وَبُلُوغُ الأَمَلِ.

4 لأَنَّ الإِنْسَانَ، إِذَا كَانَ مُوَفَّقًا وَجَيِّدَ[20] النِّيَّةِ، لَيْسَ[21] يُؤْمِلُ[22] وَلَا يَتَمَنَّى إِلَّا مَا يَبْلُغُهُ وَيَصِلُ إِلَيْهِ. وَلَمْ[23] يَتَأَسَّفْ عَلَيْهِ، إِذَا فَاتَهُ، تَأَسُّفًا يُؤْلِمُ قَلْبَهُ.

5 فَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ (أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ!) يَقْنَعُ[24] مِنِّي بِذَلِكَ، تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ[25] بِمُوَاصَلَةِ الدُّعَاءِ لَهُ[26]. فَإِنْ[27] رَامَ الأَشْيَاءَ الأُخْرَى، فَلَا يُسَوِّمِ الْقَوْمَ مَا لَيْسَ[28] بِشَائِعٍ عِنْدَهُمْ.

ج – جَوَابُ الْوَزِيرِ

6 قَالَ الْوَزِيرُ: إِنَّ الَّذِي أُرِيدُهُ وَأَتَمَنَّاهُ، لَيْسَ[29] هُوَ[30] أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا عِزٌّ فِي الْغَايَةِ، وَإِمَّا زُهْدٌ فِي الْغَايَةِ.

7 [31]فَأَمَّا الزُّهْدُ، فَلَيْسَ[31] أَطْمَعُ فِيهِ[32]. لأَنَّ[33] عَادَتِي قَدْ جَرَتْ

---

(١٧) أ ش : –
(١٨) ش : إلى طاعته
(١٩) أ ب : صلاح
(٢٠) ش : جيّد
(٢١) ش : لا
(٢٢) ب : نومل
(٢٣) أ ب : لم
(٢٤) أ ش : يقتنع
(٢٥) ش : إلى رهباننا
(٢٦) أ : به
ب : له به
(٢٧) ب : وإن
(٢٨) ب : + هو
(٢٩) أ ب : –
(٣٠) ش : –
(٣١) ش : فإني لا
(٣٢) ش : في الزهد
(٣٣) أ : لا

بِكَثْرَةِ مَنْ يَخْدُمُني، وَالزَّاهِدُ يَحْتَاجُ[٣٤] أَنْ يَخْدُمَ نَفْسَهُ. وَهَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ.

8 وَأَمَّا الْعِزُّ، فَنَنْسِي تَهْوَاهُ وَتَتَمَنَّاهُ. وَمَعَ قِلَّةِ طَمَعِي فِيهِ، لَسْتُ[٣٥] أَنَا[٣٦] بِمُؤْيِسٍ[٣٧] (كذا) مِنْهُ.

9 وَإِذَا كَانَ الرُّهْبَانُ لَيْسَ[٣٨] يَدْعُونَ لِلإِنْسَانِ بِمَا يَتَمَنَّاهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَأُرِيدُ أَنْ يَدْعُوا[٣٩] لِي بِمَا فِيهِ الْخَيْرَةُ. فَرُبَّمَا[٤٠] كَانَتِ الْخَيْرَةُ مَقْرُونَةً بِضِدِّ مَا أَتَمَنَّاهُ.

د - الْخَاتِمَةُ: تَحْقِيقُ طَلَبِ الْوَزِيرِ

10 فَأَجَبْتُهُ إِلَى مُلْتَمَسِهِ.

11 وَكَانَ قَبْلَ مَسِيرِهِ مِنْ نَصِيبِينَ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَكَانَ قَدْ جَرَى لِي مَعَهُ (فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ) كَلَامٌ فِي مَسَائِلَ تَتَعَلَّقُ بِأَخْلَاقِ النَّفْسِ، وَآدَابِ الرُّهْبَانِ وَالزُّهَّادِ، وَالْعُلُومِ[٤١] الْعَقْلِيَّةِ، مَا[٤٢] [٤٣]تَجَنَّبْتُ ذِكْرَهُ لِطُولِهِ[٤٣].

12 وَبَعْدَ مَسِيرِهِ، اجْتَمَعْتُ مَعَ الرُّهْبَانِ فِي الأَعْمَارِ الْمَحْرُوسَةِ، وَخَاطَبْتُهُمْ فِي مَا كَانَ الْتَمَسَهُ[٤٤]. فَتَوَارَدَ[٤٥] جَمِيعُهُمْ بِالدُّعَاءِ بِأَنْ يَصْنَعَ اللهُ إِلَيْهِ مَا لَهُ وَلِلنَّاسِ فِيهِ الْمَصْلَحَةُ الشَّامِلَةُ.

(للمقال صِلَة)

---

(٣٤) ش : + إلى
(٣٥) أ ب : ليس
(٣٦) ش : -
(٣٧) ش : مؤيسا
(٣٨) ش : لا
(٣٩) أ ب : يدعون
(٤٠) ش : وإن
(٤١) ش : وبالعلوم
(٤٢) ش : مما
(٤٣) ب : (مكتوبة في الهامش، بخطٍّ آخر)
(٤٤) ش : + الوزير
(٤٥) ش : فتواردوا